"لكنّ محمدًا لا بواكىَ له"

العار !

الرسول يهان فى مصر، ونحن نائمون



(هتك الأستار عن خفايا كتاب « فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين »)

قسّ ونبىّ

بحث فى نشأة الإسلام

١٩٧٩

د. إبراهيم عوض

دار الفكر العربى

٩٤ عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

الطبعة الثانية

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

« لكنّ محمدا لا بَوَاكِيَ له »

العـــــــار!

الرسول يهان في مصر ، ونحن نائمون

من قلبٍ طعين

كنتُ ، أثناء مطالعتى لكتاب « فتـرة التكوين فى حياة الصادق الأمين » ، أحسّ أن أحدهم يطعننى بسكين محمّاة فى قلبى حتى تغوص فيه إلى مقبضها ثم ينتزعها بوحشية ليعيد الطعن بوحشية أشدّ. ذلك أن الكتاب من أوله إلى آخره إهانة لسيّد البشر صلى الله عليه وسلم واستهزاء شديد به لا أظن أن مصرنا الحبيبة أو أى بلد إسلامى آخر قد شهد له مثيلا من قبل . وإنى لذاهل غاية الذهول من هذه الوقاحة فى الإقدام على إيذاء النبى عليه السلام فى بلد مسلم كمصر يتصدّى لأعداء الإسلام ببسالة منذ قرون ويدحرهم واحداً تلو الآخر بدءاً بالصليبيين ، ومروراً بالتتار ، وانتهاءً بالاستعمار الحديث ومن يمشى فى ركابه من مستشرقين ومبشرين . فكيف وصل الحال إذن إلى أن يصدر فى أرض الكنانة مثل هذا الكتاب المجرم ثم لا تنتفض الأمة على بكرة أبيها ؟

أين الكرامة ؟ أين العزّة ؟ أين حبنا لنبينا وديننا ؟ ماذا سنقول لربنا غدا إذا وقفنا أمامه وسألنا : كيف رضيتم أن يهان رسولى على مرأى منكم ومسمع ثم لا تحركون ساكنا ؟ عفوك اللهم وغفرانك !

ومعذرةً يا رسول الله أن تطاولت عليك الكلاب والخنازير ، وأمتك نائمةٌ فى العسل بل فى مياه المجارى مشغولةٌ ببطنها وفرجها ولهوها السخيف ! لو أننى أعيش فى عصرك لأكببتُ على قدميك أغسلهما بدموع الندم ولمرّغتُ وجهى فى التراب الذى تمشى عليه قدمك الشريفة، ولكننى مغلول اليد لا أستطيع إلا أن أكتب وأردّ وأنبّه الغافلين لعلهم يستيقظون !

إن المسألة ليست مسألة إيمان وكفر أو حرية عقيدة وتعبير ، فلستُ أمارى فى أن كل إنسان حرّ فى أن يؤمن بما يشاء ويكفر بما يشاء ، بل المسألة مسألة سفاهة وبذاءة وقلة أدب ورغبة فى إهانة رسولنا الأكرم ، وهو ما لا يطيقه أى مسلم بل أى إنسان حرّ نبيل أيا كان الدين الذى ينتمى إليه . وأنا هنا أتوجه بالاستغاثة إلى كل المسؤولين فى الدولة ، وإلى النائب العام وشيخ الأزهر ورئيس الجامعة الأزهرية وأعضاء مجمع البحوث الإسلامية ونواب الأمة فى مجلسى الشعب والشورى ، وإلى كل الأدباء والمفكرين والكُتّاب والصحفيين الشرفاء الذين يحبون رسولهم متسائلا : كيف طاوعتكم ضمائركم على السكوت على هذا العار ؟ أو قد صار محمد رخيصا إلى هذا الحدّ ؟ أو قد أضحى صلى الله عليه وسلم كلأً مستباحاً لا يجد من

يدفع عنه العدوان ؟ إننى لا أكاد أصدق هذا الذى جرى ، وأهْوَنُ علىَّ أن أصدّق أن السماء قد انطبقت على الأرض !

أيام أن كانت هناك بقية من نخوة وعزة كان هناك من يكتب كتابا عنوانه « الصارم المسلول على شاتم الرسول » ، أما الآن فيا للخزى والمهانة ، إذ كل ما نستطيع أن نؤلفه هو كتاب بعنوان « لكن محمدا لا بَوَاكِىَ له ! » . لقد استوحيت هذا العنوان من عبارة الرسول العظيم التى قالها غِبَّ انكسارة أُحُد حين رأى نساء المسلمين آخر النهار يبكين الشهداء ، إلا حمزة فلم يكن يبكيه أحد، فقال عليه السلام متوجعًا : « لكن حمزة لا بَوَاكِىَ له ! » ، فعندئذ بكته الباكيات أحرّ بكاء ، فيا تُرَى هل هناك من سيبكى للرسول والإهانات التى وُجِّهت إليه ويثبت أن أرض الكنانة ما زالت خصبةً تنبت الكرام الأحرار ؟

الرد على كتاب « فترة التكوين »

الرّد على كتاب « فترة التكوين »

منذ فترة ليست بالقصيرة أخذ الشك يَحِيك فى صدرى تجاه الكتب التى تحمل اسم « خليل عبد الكريم » وتهاجم الله والرسول والصحابة والإسلام مهاجمة شرسة لا تستند إلى أية أسس سليمة بل تنطلق من غلّ متلظٍّ لا يهدأ له أُوَار . لقد كان الرجل إلى أوائل الثمانينات مجرد محام لا يعرفه أحد غير أقاربه وأصدقائه وموكّليه تقريبا ، ثم شرعت بعض الصحف اليسارية تنشر له المقالات والأحاديث التى تلمز الإسلام من طَرْفٍ خفىّ ، وإن زعم صاحبها أنه إنما يدافع عن دين الله ويجلو وجهه الصحيح . ولستُ أعرف للرجل قبل ذلك أى إسهام فى مجال الفكر والكتابة ، فكيف يمكن أن تظهر فيه موهبة التأليف هذا الظهور المفاجئ بعد أن أصبح شيخًا ؟ أيكون النبوغ قد هبط عليه دون سابق إنذار كما حدث مع النابغة الذُّبيانى والنابغة الجَعْدى والنابغة الشَّيْبانى ، الذين تقول الروايات عنهم إنهم لم يبدأوا قرض الشعر إلا بعد أن تقدموا فى السنّ ؟ لكن هل من السهل ابتلاع هذه الفرضية فى حالة خليل عبد الكريم ، وبخاصة أن مقالاته التى ولج بها عالم التأليف ليست لها قيمة تُذْكَر

لا فى أسلوبها ولا فى مضمونها ولا فى بنائها الفكرى ، إذ يستطيع أن يَكْتُب مِثْلَها أىُّ إنسان يمكنه أن يتناول القلم ويُجْرِيَه على الورق ، ثم انقلب الحال فجأة كَرَّةً أخرى وأخذت تصدر باسمه كتبٌ أسلوبُها مختلف تماما عن الأسلوب السابق الذى لا يتميز بأى شىء يلفت الأبصار ، كما أنها مخدومة من ناحية المصادر والمراجع ، وفيها طنطنة وغرور مدوِّيان ؟

هذه مسألة يصعب جدا جدا هضمها ، فالمعروف أن الخصائص الأسلوبية لأى كاتب لا تتحول هذا التحول السريع الحادّ الذى ينفصل فيه الحاضر عن الماضى تماما بحيث لا يصدّق الناقد الأدبى أن هذا الأسلوب الجديد هو لصاحب ذلك الأسلوب القديم نفسه .

والأسلوب الجديد الذى صيغت به المؤلفات التى تحمل اسم «خليل عبد الكريم» بأُخَرة هو أسلوب بلغ الغاية التى لا غاية بعدها فى الحذلقة السمجة الثقيلة : فهو يَعِجّ ، وبخاصة فى الكتاب الأخير الذى نحن بصدده هنا : «فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين»[1] ، بمئات الألفاظ والصيغ الميتة التى لا تكاد تفارق بطون المعاجم والتى

(١) ط. ميريت للنشر والمعلومات / ٢٠٠١م . ويقع فى نحو ٤٢٠ صفحة .

لم يكن الشعراء القدامى أنفسهم يستعملونها إلا فى الندرة الشديدة. كذلك يحرص صاحب هذه الكتابات على التفاصح بكثرة الجمل والعبارات المترادفة التى لا تضيف جديداً إلى ما تقوله الجملة أو العبارة الأولى . إن الترادف فى يد الكاتب البليغ يزيد المعنى وضوحًا والانفعالَ حرارة بل التهابا ، أما فى حالة الكتب المذكور عليها اسم «خليل عبد الكريم» فهو ترادف ثَلْجِىٌّ خانق . ويبدو لى أن هذه الكتب، بعد أن يتم تأليفها كسائر الكتب التى يؤلفها عباد اللّه ، يُعْهَد بها إلى شخص آخر يتولى تنحية الكلمات البسيطة والصيغ الشائعة ويضع مكانها الأوابد والشوارد اللغوية التى لا توجد حتى فى كتابات الأدباء المشهورين بتنكّب العادىّ من الأساليب كعبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وابن العميد والمنفلوطى والرافعى مثلا ، إذ إن هذا التنكب من جانب أولئك الكتاب إنما هو منزع طبيعى عندهم ، أما فى الكتب التى تُنْسَب إلى خليل عبد الكريم فهو أمرٌ لا أظنه إلا مصنوعًا صناعةً ويَتِمّ ، كما قلت ، فى مرحلة تالية بعد التأليف تُمْخَض فيها معاجم اللغة الخاصة بالمترادفات والمتضادات وما أشبه .

ولست أحسب أحدا يمكن أن يخطر بباله أن خليل

عبد الكريم من العلم باللغة وغريبها إلى هذا الحد . إن ثقافة الرجل المعروفة وكتاباته السابقة ترفض خطور هذا الفرض على البال رفضا قاطعًا باتًا ، فهو ليس رؤبة بن العجاج ولا أبا العلاء المعرى ولا بديع الزمان الهمدانى ولا الحريرى بل هو هو . ويزيدنى ثقة بهذا الحكم أن الكتب المعزوّة إليه تعانى من كثرة الأخطاء النحوية والصرفية ومن ركاكة الأسلوب رغم ما هو معروف من خضوعها للتصحيح اللغوى فى المطبعة . فكيف بالله يستقيم فى العقل أن يجتمع فى شخص واحد كلُّ هذه المعرفة بغريب الألفاظ والصيغ وذلك الجهلُ بأصول النحو والصرف ؟ ومن ثم فإنى أرى أن هناك أكثر من يدٍ تشترك فى تأليف هذه الكتب . وبالنسبة للكتاب الأخير بالذات فإنى أستبعد أشد الاستبعاد أن يكون مؤلفه مسلما ولو بالاسم ، إذ فيه من الإساءة الجارحة للنبى ومن التفسيرات العجيبة لنبوته صلى الله عليه وسلم ما لا يمكن صدوره إلا من مبشّر متعصب مطموس البصر والبصيرة ، وهو ما عرضنا الأدلة عليه فى الصفحات التى بين يدى القارئ الكريم . ونرجو ألا نكون مخطئين !

ومن الأمثلة على التحذلق بالأوابد اللغوية فى الكتاب المذكور

هذه الكلمات الثلاث التى جعلها المؤلف عناوين لبعض فصوله ، وهى « قَيْدَام » ، التى لا يعرفها إلا من جعل هَمَّه التنقير فى كتب غريب اللغة . والمقصود النبىُّ الذى كان العرب وأهل الكتاب ينتظرون مقدمه . وهو جهل وتخليط مبين ، إذ « القيدام » هو « القُدَّام » لا «القادم المنتظر» كما أرادت به حذلقة الكاتب البغيضة التى طمست على بصيرته وبصره فحذف اللفظ الصحيح واستعمله بدلا منه .

ثُمَّ « الهِنْدَوْز » ، التى لا أدرى أى شيطان سخيف نفث فى رُوع مَنْ جَلَبَهَا إلى الكتاب . وقد أَبَى الله إلا أن يفضح جهل جالبها الذى أخذ يتعالم علينا قائلا إنها تأخذ صيغة واحدة للمذكر والمؤنث على السواء . لماذا ؟ لأنها ، كما قال ، مثل «نَشُور» و « فَرُوج » ، اللتين لا تدخل عليهما تاء تأنيث فى حالة استخدامهما وصفًا للمؤنث . أرأيت جهلاً مثل هذا الجهل ؟ ترى ما علاقة « هِنْدَوْز » (ووزنها الصرفى « فِعْلَوْل ») بـ « نَشُور » و«فَرُوج» (وزِنَتُهما «فَعُول») ؟ إن المتحذلق الجاهل يريد الإشارة إلى ما تقوله كتب الصرف من أن أية صفة على وزن « فَعُول » بمعنى « فاعل » لا تأخذ عند التأنيث « تاء » بل تُكْتَب بنفس الصيغة تذكيرا وتأنيثا .

فبالله ما دخل « هِنْدَوْز » فى هذه القاعدة ؟ ثم يأبى الله إلا أن

يكشف سوأة ذلك المتحذلق ثانية حين علّق بأنه لهذا السبب « يغدو وَصْفُ سيدة نساء الأرض بـ « الهندوز » لا «الهندوزة» صحيح »[١] ، إذ رفع كلمة « صحيح » رغم أنها حالٌ حقُّها النصب . وعلى كُلٍّ فصحة « الهندوز » هنا هى «الهندوزة» بالتاء رغم أنف الجهل المتنطّع[٢] .

والمقصود بـ « الهِنْدَوْزَة » السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها ، التى يزعم من يحترقون من أهل التبشير غِلاً وحقداً على الإسلام بسبب ما قَصَمَ من ظَهْر دينهم وفضح عوراته القاتلة أنها هى التى « التقطت » محمدا عليه السلام وهندزته وجعلت منه نبيا بعد أن كان رجلاً خامًا لا ثقافة لديه ولا خبرة له بالحياة ولا بالناس

(١) ص ١٠٩ .

(٢) ومثلها فى ذلك « الهِلَّوْف » (الكَذُوب) و « الهِلَّوْفة » ، و « البِرْذَوْن » (الفرس غير الأصيل) و « البِرْذَوْنة » ، و « السِّنَّوْر » (القط) و « السِّنَّوْرة » ، و«الخِنَّوْص» (ولد الخنزير) و « الخِنَّوْصة » ... إلخ . وكلها ، كما ترى ، تدخل عليها تاء التأنيث . ويقال للمرأة الضخمة المرتجّة الأرداف : « هِرْكَوْلة » بتاء التأنيث أيضًا ، وقد تكررت فى الشعر الجاهلى ، ومنها قول الأعشى :

« هِرْكَوْلةٌ فُنُقٌ دُرْمٌ مرافقها » .

وأفكارهم ومعتقداتهم ! ولكن هل راعى المتحذلقُ القاعدةَ الصرفية التى ألمح إليها ؟ أبدا ، فها هو ذا يُدْخِل على صيغة « فَعُول » (بمعنى « فاعل ») تاءً فى حالة التأنيث فى العبارة التالية المتفيهقة الثقيلة : « ولو أنهم قرأوها قراءة مستأنية ، وطالعوها مطالعة صبُورة ، ودرسوها على ريْثٍ ، ولَبَدُوا بين صفحاتها ولم يَفرّوها لما كانت بهم حاجة لطرح تلك الفكرة الخائبة ، فإن الأمر أهون من ذلك ، ولا يحتاج إلى هذا التمحل ، ولا يستدعى ذلك التكلف ، ولا يستنفر ذلك الاصطناع ... » إلى آخر هذا السيلان المخاطى [١] .

أما العنوان الثالث فهو كلمة « اليعسوب » ، التى من معانيها فى الاستعمالات القديمة المطمورة فى طيات المعاجم « الرئيس الكبير » كما يقول من اختار هذه الكلمة عنوانا لأحد فصول الكتاب ، جاهلاً أنها إذا استُعْمِلت الآن (وهى لا تستعمل إلا فى علم « الأحياء »عند الحديث عن النحل وعسله) فلا تعنى إلا « مَلِكة النحل » . وملكة النحل هى بطبيعة الحال أنثى ، وإن ظن العرب القدماء أنها ذَكَرٌ لضخامتها كما جاء فى « المعجم الوسيط » . ولهذا السبب لم

(١) ص ٢٦ .

يفسرها « المعجم العربى الأساسى » مثلا إلا بأنها أنثى النحل التى تبيض . أى أنّ الكلمة هى ، فى الواقع ، للأنثى لا للذكر ، لكن التعالُم الغبىّ يوقع صاحبه فى المزالق والمهالك ، فقد لقّب بها جالبُها إلى الكتاب ورقةَ ابن نوفل لأنه ، حسب إفكه ، هو الذى تولّى كِبْرَ تثقيف محمد عليه السلام أو « قَلْوَظَتَه وصَنْفَرَتَه وتلميعه » بُغْيَةَ «تصنيعه» نبيا (وهذه هى ألفاظ المبشّر الحقود الذى وراء ذلك الكتاب) . والحق أن هذا المبشّر (لا ورقة) هو « اليعسوب » ، فقد كان ورقة رجلا شريفا نبيلا عنًا للحق عندما استبان له أن محمدا نبى من عند رب العالمين فآمن به وأعلنها مدوّية ، وهو الشيخ الطاعن فى السن ، أنه إن امتد به العمر فسوف ينصره ويؤازره ضدّ سفهاء قومه الذين سيكذّبونه ويؤذونه، ولم يكن كهؤلاء المبشّرين الذين يليق تماما بهم أن يُسَمَّى الواحد منهم « يعسوبا » بلغة العلم الدقيقة ! لقد كانت العرب تظن ، ولها عذرها من قلة العلم آنذاك ، أن اليعسوب هو ذكر النحل الذى يساعد إناثه ، على حين أن اليعسوب هى ، فى واقع الأمر وحقيقته ، الأنثى التى يَطْرُقها كل الذكور . ولا عزاء ليعاسيب التبشير !

ومن الأمثلة الأخرى على تباصُره السمج بالغريب استعمالُه صيغة

«الضَّرُوب» بدل « الضَّرِيب » (بمعنى « الشبيه » فى قولنا : « فلان لا ضريب له »)[١] . وهو استعمال خاطئ يدل على أن الأخِر أعمى البصر والبصيرة كما سلف القول ، ويتصدى لما لا يُحْسِن . وليس أسخفُ ولا أسمجُ ولا أغثُّ ولا أبردُ من فَدْمٍ جهول يتعالم على عباد الله ولا يلزم حدوده فيتصرف على قدر حجمه الشَّخْت الضئيل ، إذ «الضَّرُوب» هو « الكثير الضَّرْب » (سواء الضرب المعروف أو غيره) . ويبدو أن كاتبها المستخفى كان ، وهو يستعملها ، يتقلقل مهتاجًا طالبًا « ضَرُوبا » حتى يهدأ ويسكن . كذلك أضحكنى غرام المبشّر المستخفى بترديد كلمة «النسوان» (التى أسقط ألفها فى عشرات المواضع وجعلها «نِسُون» ، ولا أدرى أى خَبَل أصابه فجعله يلزق فى هذه ويترك تلك) ، وكذلك كلمة «المَرَة» بدل « المرأة » أو «السيدة» كما يقول المهذّبون الأفاضل . وهو ما يذكّرنى بشيوعى سافل جمعتنى به الظروف فى السبعينات مرة أو مرتين فألفيته كلما جاء ذكر سيدة كريمة قال : «المرة» ، فأفضيت باستغرابى لبعض من كانوا معنا وسألتهم عن السبب فى إكثاره من ترديد هذه الكلمة ،

---

(١) ص ٢٦ ، ٣٠ ، ٣١٥ مثلا .

فانبرى أحد الحاضرين ، وكان ظريفا لبقا ، فقال : « لأن البعيد مَرَة ابن مَرَة ، ويُؤْتَى من ... » ، فأُخِذْت بهذا الردّ الذى لم يكن لى فى حسبان ، وظننتُ أنه قد تجاوز المدى جريا وراء السجعة ، وكم للسجّاعين من تجاوزات ، بيّد أن جاره سارع إلى طمأنتى قائلا : « لا تُرَعْ . إنه يسجع ، لكنه لا يقول إلا حقّا . فالأبعد «مفعول فيه» كما يقول النحاة » ، وهو ما أكده الحاضرون جميعًا ، ومنهم الشيوعى ، ومنهم ذو الدين ، ومنهم من لا يهتم بشيوعية ولا دين ، فعرفت أن الأمر كما قال .

ومن الحذلقة الغثّة الباردة أيضًا قولُ المبشّر المستخفى عن الأنظار: « من المحال أن يتصف المنتظَر (أى النبى المنتظر) بأنه مُهْتَلَس العقل أو هِجْزِع أو ذو زعارة » [1]. والله لا مهتلس عقل أو هجزعًا ذا زعارة إلا هذا الأزعر وأمثاله ! وقد قلت : « الأزعر » عن عمد جريًا على أسلوب إخواننا اللبنانيين الذين صدر فى بلادهم منذ سنوات كتابٌ له صلة بالكتاب الذى بين أيدينا مما سيأتى خبره بعد قليل ، وذلك حتى تكون الألفاظ مناسبة لسياقها ، فقديما قال أهل البلاغة إن لكل مقام

(١) ص ٣٨ .

مقالا . وذلك الأزعر ، إدلالاً منه بمقدرته على الإتيان بهذه الغرائب المضحكة ، قد وضع ، عقب كل لفظ من الألفاظ الثلاثة ، شَرْحَه بين قوسين كعادته الـمُسْتَوْخَمَة . وهو استعراض مَرَضِيّ ينمّ على فقر صاحبه فى اللغة ، وإن ظن أنه يداريه بهذه الألاعيب الطفولية ، شأنه شأن العريان الـ ... ، ويجب التجميز! وهو ، فى هذا ، يقلّد الأستاذ محمود شاكر ، ولكن أين الثَّرَى من الثُّرَيّا ؟ وأين النكروش من الفحل الهدّار ؟ لقد كان شاكر عالما يغوص باقتدار فى بحر اللغة الزخّار ، أما ذلك النكروش القابع مستخفيا فى الظلام فلاصقٌ بوجعائه فى الطين . ثم إن شاكرا كان لا يذهب هذا المذهب الاستعراضى البهلوانى ، إذ لم يكن يورد من الغريب إلا ما كان له نكتة بلاغية ، فضلا عن أن غريبه دانى القطاف خفيف على القلب ويأتى فى جوّ أسلوبى رائع ، فكأنه مُجَاج النحل ، أما عبارةُ « مهتلس العقل هجزع ذو زعارة » وأمثالها فَتَنْفَحُ برائحة نتنة خبيثة تدل على أن مَخْرجها ومَخْرج العَذِرة واحد !

أما قوله مرارا : « الأيْئَة » عِوَضا عن « الهيئة » فلست أستطيع أن أجد لها تفسيرا إلا أنه قد ارتدّ « نُونُو » لا يقدر على نطق الهاء ،

«يحميه ربى من الحاسدين» كما كانت تقول الحاجّة شادية قديما فى أغنيتها المشهورة !

ومن دواهى جهله الأطمّ قوله ، عند كلامه عن الرسول الكريم وحُسْنِ منطقه وفصاحة لسانه ، إن ميسرة قد تحدث إلى خديجة عن « رهافة مِذْرب محمد » (١) ، يقصد رهافة لسانه صلى الله عليه وسلم . أفلم يجد إلا كلمة « مِذْرب » ، التى تدل معظم اشتقاقات مادتها على سلاطة اللسان والبذاء ؟ إن من المقبول جدا بل من اللائق تماما أن يقال عن هذا المبشر السفيه الذى حرمه الله من حسن اختيار اللفظ إن له « مِذْرَبا » يَذْرَب به ويَسْلَح ، لأنه فى الواقع ليس له فى وجهه فم كسائر عباد الله بل استٌ يَضْرط بها ويَخْرأ ، أما سيّد الخلق فشىء آخر . والكتاب بَعْدُ مفعم بهذه الاستعمالات السخيفة الباردة ، ولكن يكفى هذا ، وإلا فلن ننتهى .

والآن إلى غثاثاته فى مجال الترادف ، وهذه بعض أمثلة عليها لا غير : « فَلْنَدَعِ الكذب والتزييف والدَّخَل جانبا ، ولنقدّم فرضا آخر ، وهو أن أحدهم أو بعضهم أخطأ فى الفهم أو تسرّع فى الاستنتاج أو

---

(١) ص ٢٨٣ .

شططٌ فى التقدير ففهم السكوت موافقة ، والتريث إجابة ، والتمهل قبولا ، فإن باقيهم لا يُعْقَل أن يجيئوا على هذه الشاكلة أو ينسجوا على ذات المنوال أو ينهجوا نفس الطريق » [١]. فانظر كم مرة فى هذه الأسطر القلائل قد افتعل الترادف افتعالا دونما أدنى ضرورة ! «لم تر جزيرة العرب له مثيلا ، ولم تشهد له ضريبا ، ولم تعاين له شبيها أو ندّا»[٢] . « وهذا محض الخطإ ، وأُسّ الخطَل ، وجرثومة الانحراف ، ومعدن البطلان ، وركيزة الفساد » [٣]. « أوقع السابقين واللاحقين والخلف والسلف فى هذا المرج ، وساقهم إلى هذا الخلط، ودفعهم إلى هذه الخربقة » [٤]. « لا يمارى فيها إلا شكِس ، ولا يعارضها إلا مناكف ، ولا يشكك إلا معاند ، ولا يقدح فيها إلا لجوج ، ولا يعيبها إلا يَلَنْدَد » [٥]. آمنت بالله ، الذى لا تنقضى عجائبه والذى أرانا فى آخر الزمان كيف أن الاست الذى لم نكن

(١) ص ٦٥ .

(٢) ص ١٢١ .

(٣) ص ٢٥٩ .

(٤) ص ٢٩١ .

(٥) ص ٣٧٦ .

نعرف له من وظيفة إلا أنه يضرط ويَخْرأ قد أصبح وأضحى وأظْهَرَ وأمسى وبات وصار يتكلم ويأتى بهذه الدُّرَر . أقصد « العُرَر » . والأمثلة أكثر من الهم على القلب ، إذ لا تخلو منها فقرة بل لا تكاد تَعْرَى عنها جملة إلا فى الشاذ النادر .

ولكن كيف يستقيم هذا التحذلق بغرائب اللغة مع الجهل بقواعد النحو والصرف التى تفضحه الأمثلة القليلة التالية ؟ : « بيَّدَ أنه فتى يفيض شبابا وقوة وحيوية وسيما قسيما » (١) (وصوابها : «وسيم قسيم» لأنهما النعتان الثانى والثالث لـ « فتى » ، أما النعت الأول فهو « يفيض شبابا ... ») ، و « يقع ... تحت تأثير عمّاته ....، إذ تُعْلِنَّ له : ... » (٢) (وصوابها « يُعْلِنَّ » ، وهى غلطة لا يقع فيها إلا من سكّر الله بصره عن قواعد لغتنا الجميلة) ، و «ينجح أصدقاؤه فى إثنائه عن عزمه» (٣) (وهى كسابقتها تدل على جهل مطبق بلغتنا العبقرية ، فالجهلاء هم وحدهم الذين لا يستطيعون التمييز بين « ثَنَى » ، أى « طَوَى » أو « ردّ » وما إلى ذلك ، وبين

(١) ص ٢٥ .
(٢) ص ٥٤ .
(٣) نفس الصفحة .

«أَثْنَى» ، أى أشاد بذكر المحاسن) ، و « لا تَعْصِى له أمرا (يا فلان)»(١) (وصوابها : « لا تَعْصِ » بحذف الياء من آخر الفعل على البناء للأمر) . وفى الكتاب من هذه الأخطاء الفاضحة الكثير !

على أن المبشِّر الجاهل المستخفى ، بدلاً من الاشتغال بستر سَوْأَته دَرْءًا لمزيد من الفضائح أو على الأقل بدلاً من السكوت خزيا ، يرفض إلا أن يزداد نصيبه من الخزى والعار ، فهو يسعى إلى حتفه بحوافره فيتخذ سَمْت العلماء الذين يتتبعون أخطاء الكُتّاب ليصوّبوها محاولاً أن يصنع صنيعهم قائلا إن صواب عبارة « هل كانا مَذْهَبَيْن أو أنهما كانا جناحين ؟ » هو « كانا جناحان »(٢). وهذا الجهل الأعمى يتبدى أيضًا فى قوله فى الصفحة التى تلى ذلك : « والفِرْقة بأسرها تعتبر فى نظر بولس وتُبّعه هراطقة ومارقون » (بدل « مارقين » لأنها معطوف على المفعول الثانى لـ « تُعْتَبَر ») ، وكذلك فى الجملة التالية الموجودة فى الصفحة التى بعدها : « هذا ما يؤكده علماء الفرنجة المدققين فى تواريخ الأديان » (بدلا من « المدققون » ، التى

(١) ص ٢٥٢ .

(٢) ص ١٧٥ .

هـى نعتٌ لـ « علماء الفرنجة » المرفوعة على الفاعلية) ، وكذلك أيضًا فـى قوله : « ما لك مسرع ؟ ما له مسرور ؟ » [١] (بدلا من «ما لك مسرعا ؟ ما له مسروراً ؟ » بالنصب على الحالية) .

وكيلا نطيل على القارئ أسارع فأختم بالتنبيه على هذا الخطأين اللذين يدلان على أن صاحبنا قد بلغ من الجرأة الجاهلة مبلغا لم يصل إليه أحد قبله ، ولا أظن أحدا بعده سوف يصل إليه فى أى يوم من الأيام . إنه يقول عن عبادة بعض العرب للأشجار : « وقد درج عرب ما قبل الإسلام على تقديس الأشجار بل تعبُّدهم إياها » [٢] . وواضح مدى فُحْش الجهل فى استخدام كلمة « تعبُّد » ، التى لا تعنى فى هذا السياق إلا أن العرب كانوا يتخذون الأشجار عبيداً لهم أو كانوا يدعونها لعبادتهم . وهذا شىء مختلف بل مناقض لما قاله المتشدق البغيض .

كما يقول عن خديجة رضى الله عنها إنها قد « تيقنت ... على بَكْرة أبيها بنفسها من فصاحة محمد صلى الله عليه وسلم أيام أن

---

(١) ص ٣٢٢ .

(٢) ص ٢٤٧ .

كان يشتغل فى تجارتها قبل أن يتزوجها »[1] . فهل مَنْ يدلنّى على معنى عبارة « على بكرة أبيها » هنا ؟ إننا نقول مثلا عن جماعة من الناس : « جاؤوا على بكرة أبيهم » ، أى جاؤوا كلهم لم يتخلف منهم أحد ، أما أن يقال عن شخص واحد إنه « جاء على بكرة أبيه » فهذا هو البَلَه بعينه . فإذا جئنا إلى قول صاحبنا عن خديجة رضى الله عنها إنها قد « تيقنت ... على بكرة أبيها بنفسها ... » فهذا بكل تأكيد شىء وراء البَلَه والعَتَه لا أعرِف كيف أسمّيه لأن أصحاب اللغة لم تمرّ عليهم مثل هذه الحالة العقلية فلم يضعوا لها لفظا يدل عليها .

والكتاب ، فضلاً عن هذا ، يفيض بقلة الأدب والوقاحة المجرمة التى لم يصادفنى مثيل لها من قبل . وهذه الوقاحة عنوان على ما فى قلب الكاتب المستخفى وراء غيره من غِلّ غَلِيل على الإسلام ورسوله ورموزه الكريمة . وأرجح الرأى عندى ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، أن هذا غلٌ تبشيرى ، فلست مستطيعا أن أتصور أى منتسب إلى الإسلام يمكن أن تواتيه نفسه على هذا الإجرام الذى تخطّى كل

---

(١) ص ٢٨٣ .

الحدود والسدود ، إذ لماذا يكره محمدا من تلقاء نفسه من يُنْسَب إلى دينه حتى لو كان فى الحقيقة كافراً به ؟ لنقرأ معًا هذه السفالات والبذاءات ، وليغفر الله لنا :

- « هذا الكتاب يقدم رؤية جديدة نزعم أنها غير مسبوقة لحل هذا اللغز الذى ملأ الدنيا وشغل الناس » [١] . يقصد باللغز نبوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاعلا منها مجرد فزورة سوف يتسلى « نيافته » بحلّها ، وهى التى قلبت موازين التاريخ والحضارة ومسيرة البشرية ، فيأتى هذا المأفون ويسميها « لغزاً » .

- « بدأنا مع محمد قبل أن يلتقى أبوه بأمه ، ثم وهو جنين فى بطن أمه ، ثم صاحبناه ليلة مولده ، ثم وهو مولود ثم طفل ثم صبى ثم شابّ حتى التقطته سيدة قريش » [٢] . فانظر السفالة التى يتحدث بها الكاتب الوقح عن سيد الأنبياء وكأنه صبى متشرد يهيم على وجهه فى الشوارع دون أهل أو مأوى . أهذه لغة يُتَحَدّث بها عن مثل محمد عليه السلام حتى لو لم يكن نبيا رسولا ؟ إن المسألة هنا

---

(١) ص ١٨ .

(٢) نفس الصفحة .

ليست مسألة كفر وإيمان أو حرية فكر واعتقاد بل مسألة غِلٍّ وبذاءة وقلة أدب ! ولا أدرى ما الذى أصاب المسلمين فأضْحَوْا يتقبّلون قراءة مثل هذا الكلام دون أن تميد بهم الأرض مَيْداً ! أليس هناك رجال شاربون من ثدى أمهم يغارون لمحمد وكرامة محمد وعِرْض محمد ؟

- « إن هاجس قيام شابةٍ بِكْرٍ أو ثيِّبٍ مثلها فى بَكّة أو ما حولها بنّشل الحبيب المصطفى ونكاحه أرّق خديجة وطيّر النوم من عينيها الاثنتين» [١] . إننى لا أصدّق عينى وأنا أقرأ هذه الألفاظ الشوارعية التى لا تجرى إلا على ألسنة النشالين والحشاشين وأشباههم . ومثل ذلك قول الكاتب قبل قليل على لسان خديجة عن محمد عليه السلام : « مِنْ ألزم اللازم أن أنكحه بل وأسارع حتى لا تنتشه منّى إحدى عذراوات أو أيامى قريش » . أفى سيرة للنبى عليه السلام نحن أم فى غُرْزَة حشيش بين جماعة من البلطجية والقوادين والقرّادين وشرّاطى الجيوب ؟

- « تبيّن لنا أن سيدة قريش (أى خديجة) جفّ ريقها وحفيت قدماها وداخت السبع دوخات ... حتى وافق إمام الأولين والآخرين

---

(١) ص ٣٨ .

(يشير إلى سيدنا وسيّده وسيِّد آبائه وأجداده رغم أنهم لا يستحقون هذا الشرف) على خِطْبتها فنكاحها »[1].

- « إن هذا الحشد القوى والتجييش المضاعف والتعبئة المخططة من قِبَل سيدة النساء إزاء البشير النذير وهذا الحصار المحكم له حتى رفع الراية البيضاء وسلّم لها بطلبها ورضى أخيراً بنكاحها إياه ... لذلك كله علة مفردة لا توأم لها ، وهى أنه القادم الذى طال انتظاره »[2].

- « إن سيدة قريش حينما تُضَاعِف الجُعْل أربعة أضعاف لمحمد فإنها بذلك تُبَلْسِم ما قد يعتور قلب محمد من ندوب ... عندما تطير منه أم هانئ لمّا تفلح سيدة قريش فى نكاحه »[3]. ودعنا من الاستخدام الجاهل للحرف « لـمّا » مع المضارع بمعنى « عندما » ، ولنركّز على هذه اللغة الشوارعية !

- « أما من جانب الخاشع (أى محمد ، استهزاءً به صلى الله عليه وسلم كما سيتضح فورا) فلا شك أن القارئ لم يفته أنه أصبح

(١) ص ٣٩ .

(٢) ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٣) ص ٤٨ . وأم هانئ هى أخت على بن أبى طالب ، وكانت هناك نية فى أن يتزوجها الرسول عليه السلام فى شبابه ، ولكن لم يتمّ الأمر .

مثلا فاذاً في المطاوعة والملاينة : « اجلس على فخذى » ، يجلس. « تعال في حجرى » ، يأتي . «ادخل بين قميصي وجسدى» ، يدخل » . وهذا له دلالة لمن لديه ذرة من زكانة أو مُسْكَة من فطانة على أن الخاضع غَداَ ينظر إلى زوجته نظرة الابن إلى أمه الحبيبة الذى يرى سعادته في برّها ومهاودتها وأن ما تأمر به واجب النفاذ العاجل لأن الوالدة الحنون لا تشير إلا بكل ما هو في صالحه ولفائدته حتى ولو لم يعرف كنه الطلب ولا مغزى الأمر »[(١)]. كيف يسكت المسلمون يا إلهى على هذه الإهانات لنبيهم ؟ هل أصبح يجرى فى عروقهم ماء بارد بدلا من الدم الحار الذى يغلى فى عروق كل من عنده ذرة من كرامة وكبرياء ؟ هل بلغ بهم الهوان أن أمسى كل من هبّ ودبّ يبول عليهم ويتبرز وهم متبلّدون لا ينبض فيهم عرق ؟[(١)]

ـ « وفى وقت من الأوقات اجتمع محمد بعدد من صحبه فى حجرة عائشة على غَدَاء أو عَشَاء ، فأرسلت زوجةٌ أخرى هى صفية بنت حُيَيّ طَبَقًا فيه طعام . ونظرا لأنها يهودية ومن العِلْيَة بين قومها

---

(١) ص ٩٣ ـ ٩٤ .

فهى على درجة حضارية أرقى ، ومن ثم تجيد الطبخ » [١] . وبُغْض الإسلام الملتهب هو الذى سوّل للمبشّر النكروش أن ينصر اليهودية على الإسلام ، فاليهودية (متمثلةً فى صفية حسبما توهّم الحاقد الجهول رغم أن صفية ، رضى الله عنها ، قد أسلمت وتبرأت من يهوديتها) أفضل عنده من الإسلام (متمثلا فى عائشة ، التى يلمزها بطريق المخالفة من خلال وصفه لصفية بأنها من عِلْيَة القوم) . يريد أن يقول إن عائشة (التى يسميها بعد أسطر : « بنت أبى بكر » رغبة فى تجريحها لنا نحن الذين نؤمن عن يقين أن ظُفْرا من أظفار قدمها أشرف ألف مرة من رقبة كل علج لئيم بلغ الدرك الأسفل فى النذالة ولؤم الطبع والانحطاط) لا تُسَامِى صفية فى المركز الاجتماعى . يعنى أن أبا بكر الصديق أقل فى نظر الحقير المنحط من اليهودى حُيَىّ بن أخطب عدوّ الله ورسوله، وأن عائشة أقل تحضرا من صفية ، التى تستطيع الطبخ المسبّك بالصلصة والسمن البلدى واللحم على حين أن بنت أبى بكر لم تكن تحسن إلا صنع البصارة بسمن «النخلتين» ! أرأيتم قلة الأدب كيف تكون ؟ على أن الوقاحة الجلْفة

---

(١) ص ٩٨ .

لا تقف عند هذا ، إذ مضـى المتطـاول السفيـه فوصفها بعد أسطر بـ « الزوجـة الغندورة »[١] ، وذلك بعـد أن عـرّج فى الطريق على أمهات المؤمنين وأتحفهن بلقب « نسوان صاحب النعلين » . وهذا هو الأسلوب الذى يحاربون به الإسلام ! إنه أسلوب المومسات !

- « وهناك أقصوصة أخرى أو أقصوصتان أُخْرَيان ، وهما تعرُّض مَرَّتَين (يقـصـد امرأتين) همـا قـتيلة بنت نوفل وفـاطمـة بنت مـر الخثعمية لعبد الله أبى محمد ليركبهما »[٢] . ترى مـاذا يمكن أن نقول فى التعليق على هذه البذاءة سوى أن كل إناء ينضح بما «يُفْعَل فيه» ؟

- « وعسى الوقت قد حان لنطرح أمام باصرة القارئ بعضا من شواهد خوارق ... الولد المبروك »[٣] . أتدرى أيهـا القـارئ المسلم مَنْ ذلك الولد المبروك ؟ إنه نبيّك محـمـد صلى الله عليه وسلم ! فانظر إلى المدى الذى وصلت إليه جرأة أعداء الإسلام فى إهانة نبيك وفى

---

(١) ص ١٠٠ .

(٢) ص ٢٠٦ .

(٣) ص ٢٠٧ .

عقر دارك مصر حارسة الإسلام ! وانظر كذلك إلى البلادة والجمود اللذين نتلقى بهما هذه الإهانات !

- « هى (أى خديجة) تزوجت مرتين أنجبت فيهما أولادا وبنات ، وهو (أى محمد) لم يدخل دنيا »[1] ، هكذا بلغة المساطيل !

- « أَغْرَقَتْه (أى أغرقت خديجة محمدا) بطوفان حبها وألبسته الحرير وأطعمته الخمير فصار لها عاشقا كما قال . وكيف لا يفعل وهى قد نقلته نقلة لم يحلم بها مجرّد حُلْم من عسيف (أى أجير) يكدح من مكة إلى حباشة ومن قرية القداسة (أى مكة) إلى الشام لقاء بَكْرٍ أو بكرين ، إلى واحد من السادة الغطاريف الذين يلبسون أغلى الثياب وأرقها ويتلذذون بأشهى الأطعمة وأحلى الأشربة ، ووكَظَتْه (أى دفعته) إلى التجربة (أى تثقيفه وتدريبه وإعداده لتصنيعه نبيّا)[2] ليرتع فيها على مهل ويمرح على ريث »[3] . هل هناك لؤم ووقاحة وقلة أدب أشد من هذا ؟

(١) ص ٢٨٩ .

(٢) انظر ص ٣٠٣ .

(٣) ص ٣٠٤ .

- « ومن ناحية أخرى فقد ذاق (محمد) الحرمان وكابَد المسغبة وكواه الفقر ، فلا يسكّن رُوعَه ويهدّئ بالَه ويُطَمْئن نفسه ويريح خاطره سوى أن يوضع المال جميعه بين يديه (أى تضع خديجة كل ما لها تحت تصرفه) »[1]. ترى هل يستطيع أى وغدٍ زنيم أن يقول شيئا من هذا الكلام ، ولو عشر معشاره ، فى حقّ حاكم بلده ؟ إن مثله لا تواتيه الجرأة والصفاقة إلا فى حق الرسول الأعظم لاطمئنانه إلى أنه لا حياة لمن يهينهم ويبصق على وجوههم من المسلمين ، إذ هو يعرف أنهم قد فقدوا كل نخوة فلم يعودوا يغضبون لأى شيء ! أقولها مرة أخرى وبالفم الملآن : « فقدوا كل نخوة فلم يعودوا يغضبون لأى شيء ! » .

- « الذى ترجّحَ أنه (أى الرسول) فى البداية عَصْلَج (عن التقدم لخطبة خديجة) وامتنع واحتجّ ... إلخ ، ولكن الطاهرة (أى خديجة) بما لها من كَيَسٍ وفطانة ولباقة وتجربة فى معالجة البُعُول استطاعت أن تثنيه عن موقفه ... وتأخذ منه صكّ القبول وشارة الرضى وعلامة الوفاق »[2]. أىّ امتهان يا إلهى لأسمى علاقة زوجية

(١) ص ٣٠٩ .

(٢) ص ٣١٠ .

فى تاريخ البشر ! وما هذه اللغة الوسخة : « عَصْلَجَ . تجربتها فى معالجة البعول . صكّ القبول » ؟ أين نحن يا ترى ؟ وعمّن يتكلم الفَدْم الغبىّ ؟ إن الغِلّ التبشيرى لا يتركه ينعم بهدوء أبدًا بل يبقيه دائمًا متفزّزا سليط اللسان هجّاما عيّابا همّازا لـمّازا فى حق الرسول الكريم وزوجته الطاهرة الشريفة اللّذين لا يعرف النكاريش الأنتان كيف يتحدثون عنهما بما ينبغى لهما من تجلة واحترام لأن وحل المجارى الذى يعيشون فيه ويأكلون منه قد أفقدهم الحسّ بما يليق وما لا يليق !

- « الذى حاز الثقافة الدينية آنذاك (أى فى مكة عَشيّةَ البعثة النبوية المشرّفة) هم نفر من النخبة القرشية ، أما الآخرون ، وهم العامة الذين يكدّون فى سبيل لقمة عيشٍ جَشب (= خشن) ، فلا يفكرون فيها مجرد تفكير، إذ هى بالنسبة إليهم ترف لا يقدرون عليه. ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة عقلانية مجردة لا بد أن نتساءل : أنّى لفتى صغير خرج بالكاد من مرحلة الطفولة واشتغل برعى الغنم ثم لما شبّ قليلا عمل أجيرا تجاريا بِبَكْرٍ من الإبل (يقصد الرسول الأعظم)، أنّى له أن يحوز ثقافة دينية أو ثقافة من أى نوع؟» [١] .

(١) ص ٣١٨ .

يعنى بالعربى : كان جاهلاً تمام الجهل ، صفحة ذهنه « بيضاء من غير سوء » (كما قال الكاتب الوقح المستخفى بعد ذلك بأسطار) وعاميًا من الأوشاب الذين لا قيمة لهم فهم يرْضَوْنَ بما يقدمه لهم مستأجروهم من فتات . إنه ، فى نظر هذا «المركوب» ، ليس أكثر من بائع سرّيح يشتغل بأجر حقير عند إحدى معلّمات السوق الكبار ! وهذا ما عند المبشّرين ومن يشايعهم فى وصف زعيم الرسل والنبيين أجمعين !

- « فَرْدٌ واحد من غير هؤلاء (أى غير ورقة وبحيرا وعداس وسرجيوس) أَسْنَدَتْ إليه هِنْدُوزُ التجربة (يعنى خديجة) دورا صغيرا. حقيقة أنه لا يعدو ما يؤديه كومبارس فى شريط سينمائى ، بيد أنه بكل المقاييس يُعَدّ مشاركة ، ولو أنها عجفاء هزيلة ضامرة ناحلة ... والفرد الذى نعنيه هو أبو بكر بن أبى قحافة » [(١)]. وهكذا تحولت خديجة رضى الله عنها ، على يد المبشّر اللئيم ، إلى مُخْرِجة أفلام ومسرحيات ، كما تحوّل أبو بكر إلى كومبارس . وليحمد الله ويقبّل يديه ظهرا لبطن لأن الست المخرجة قد عطفت عليه وأظهرته فى فلمها الجديد المسمّى «تصنيع نبى» والذى سيضرب الدنيا ويقلبها

---

(١) ص ٣٤٣ .

رأساً على عقب وسيحقق إيرادات خرافية . ذلك أنه قلم لم يسبق له مثيل كما يبدئ الكاتب ويعيد فى وصف كتابه . إلا أننا لا نستطيع أن نقف مكتوفى الأيدى صامتين أمام هذا التهريج : فلا القلم غير مسبوق ، ولا هو يستأهل شيئا من هذه الضجة ، لأن المسألة فى الحقيقة لا تخرج عن أن تكون تدجيلا وقحا من النوع الذى يمارسه باعة اللبان الذَّكَر فى الحافلات عندما يصيحون بأن لبانتهم يحمّر الخدود ، ويبرم الكعوب ، ويجلو الصدور ... إلخ . وعلى هذا فلا بد من فضحه ، ولكن خطوة خطوة، فاصبر معنا أيها القارئ الكريم .

إن فكرة الكتاب تقوم على أن ورقة بن نوفل وخديجة بنت خويلد قد التقطا محمداً من بين أهل مكة ليثقفاه « ويُصنِّفراه ويقلّوِظاه ويلمّعاه » (كما يقول المبشّر الحقير الذى وراء الكتاب) كى يصنعا منه نبيا ، إذ شاع وقتها بين العرب وأهل الكتاب أن هناك نبيا قادماً ، فأخذ الجميع ينتظرونه ، لكن ورقة وخديجة سبقا الباقين فاختارا محمدا اختيارا لما سمعا من الكرامات التى كان يقال إنها تحدث له منذ أن كان فى بطن أمه ، وأخضعاه لبرنامج تدريبى قاسٍ يتلخص فى

أن تقرأ له خديجة ما يترجمه ابن عمها ورقة من الإنجيل وتشرحه له وتطلب منه أن يَحْفَظه ثم يعيد تسميعه كما يفعل شيخ الكُتّاب مع تلامذته ، بالإضافة إلى تفريغها إياه من همّ السعى وراء المعاش بوضع كل ما تملك من ثروات طائلة بين يديه يفعل به ما يشاء حتى تكسب قلبه فلا يفكر فى غيرها ، مع دفعه إلى غِشْيان الأسواق والتجمعات التى يرتادها الرهبان والمبشرون من كل دين كى يحتك بهم ويتعلم منهم ما ينفعه مستقبلا فى الوظيفة التى تعده لها هى وابن عمها إعدادا . وهو يؤكد أن ورقة كان قسّا لكنيسة مكة وما يجاورها ، كما كان كثير من أفراد قبيلته بنى أسدٍ نصارى ، ومنهم خديجة رضى الله عنها . ثم يمضى قائلا إنهما قد انتقلا بمحمد بعد ذلك إلى مرحلة أخرى هى مرحلة الوحدة والابتعاد عن الناس بالتحنث فى غار حراء وشَحْنه أثناء ذلك بكل ما يساعده على أن يرى فى منامه الرؤى التى ينبغى أن تَحْدُث للقادم المنتظر ، حتى وقعت الواقعة فعلا ورأى منامَ الغار الذى خيِّل إليه أنه هو النبى الموعود . فعندئذ أعلنت خديجة للعرب ، وهى فى غاية السعادة بنجاحها هذا الذى لم تكن تتوقع رغم ذلك أن يكون بذلك الشكل الباهر ، أنهم هم أيضاً قد أصبح لهم نبى كأهل الكتاب .

والكاتب ، في أثناء ذلك ، يردّد أن دراستــه هذه هى دراسـة جديدة تمام الجدة ، إذ أتى فيها بما لم يسبقه إليه أى كاتب آخر ، وذلك فى غرورٍ وانتفاخ وتعالم لم أعهده فى أى كاتب من قبل [١] . لكن ما رأى القارئ الكريم إذا قلنا له إن هذا كله تنفُّج كاذب وقح؟ فهذه الأفكار ، وغيرها كثير ، مأخوذة من كتاب صدر منذ اثنتين وعشريـن سنـة (بالضبط فى سنة ١٩٧٩م) فى لبنان بعنوان « قَسّ ونبى » لمن سمَّى نفسه على غلاف الكتاب « أبا موسى الحريرى » . والواضح أنه نصرانى ، وإن كنت لا أدرى أهو لبنانى أصـيل أم من المبشرين الذين يعيشون فى لبنان أو يترددون عليه . وهذا هو السرّ فى إشارتى التى مرت منذ صفحات إلى ذلك البلد حينما كنا بصدد الحديث عن عبارة صاحب « فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين » الخاصة باهتلاس العقل والزعارة ، فقد أردت بهذه الإشارة إلى أن أُلْمِح من بعيد لمن يعنيهم الأمر إلى أننى واعٍ جيداً لعملية النصب والاحتيال التى يقومون بها فى وقاحة بَجِحة ، و« كل لبيب بالإشارة يفهم » كما جاء فى الأمثال !

---

(١) ص ١٨ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ٢٧٩ ، ٣١٥ مثلا .

فأبو موسى الحريرى هذا يؤكد أن الوجود النصرانى فى مكة بل فى الحجاز كله قبيل البعثة النبوية كان كبيرا [١] ، وأن وجود صورة المسيح وأمّه بين الصور التى كانت مرسومة على جدران الكعبة وإبقاء النبى عليه السلام عليها يوم الفتح دون سائر الصور شاهد على ذلك[٢] ، وأن ورقة بن نوفل كان قسًّا فعلاً لقريش فى كنيسة مكة[٣] ، وأن عددا غير قليل من قومه بنى أسد بن عبد العُزّى كانوا نصارى [٤] ، وأن نصرانيته رضى الله عنه ليست هى المسيحية التى نعرفها بل كان من فرقة الإبيونيين الذين كانوا لا يعترفون بألوهية عيسى ولا بصلبه [٥] ، وأن الإنجيل الذى كان فى يده يطالعه ويترجم منه ليس هو الأناجيل التى نعرفها ، بل هو « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، الذى كانت جماعة الإبيونيين لا تعرف غيره ، وهو إنجيل متّى مطروحًا منه الفصول التى تتحدث عن ألوهية عيسى وما

---

(١) ص ١٧ .

(٢) نفس الصفحة .

(٣) ص ١٨ ، ٣٠ .

(٤) ص ١٦ .

(٥) ص ٥ ـ ٦ ، ١٩ ـ ٢١ ، ١١٢ ـ ١١٥ .

إلى ذلك مما لم يكن أولئك القوم يعتقدونه فى المسيح عليه السلام[١]، وأنه هو الذى عقد قِرَان النبى صلى الله عليه وسلم على خديجة ، رضى الله عنها وأرضاها ، وألقى خطبة النكاح بوصفه كاهنا يقوم بطقوس الزواج النصرانية لا بوصفه مجرد قريب للعروس[٢]، وأن خديجة كانت آنذاك على دين النصرانية وكذلك محمد عليه السلام[٣]، الذى كان يدرك تمام الإدراك أنه لا يستطيع تطليقها أو التزوج عليها بأخرى طبقا لما تقضى به قوانين الكنيسة فى أمور الزواج[٤]، وأن ورقة هو مُرتِّب هذه الزيجة التى كانت شيئا غريبا على المجتمع العربى لمصادمتها للتقاليد[٥]، وأنه أيضًا هو الذى درّبه على التأمل الروحى والصلاة فى غار حراء وتولّى إعلان نبوته على العرب[٦]، فهو الأستاذ الذى علّم وأرسى الدعائم ، ومحمدٌ التلميذ الذى سمع وتعلّم وشيّد البنيان ، أو بعبارة أخرى هما المربِّى والربيب :

(١) ص ٢١ ، ٢٧ - ٢٩ ، ٣٤ ، ٦٩ ، ٧١ - ٨٢ ، ٨٦ ، ١٤٣ .

(٢) ص ٣٠ ، ٣٨ .

(٣) ص ٣٨ .

(٤) ص ٣٩ .

(٥) ص ٣١ ، ٤٠

(٦) ص ٣١

فالقسّ نقل كلمة الله من العبرية إلى العربية ، والنبى قام بتبليغها إلى قومه بالعربية [١] ، وأن القسّ الأستاذ رغم هذا كان حريصا على التوارى فى الظل خلف تلميذه بعيدا عن أنظار التاريخ [٢] ، وأن النبى التلميذ قد تفوق على أستاذه لما كان يتمتع به من ذكاء وعنفوان وجرأة وتجرد وإقدام [٣] ، وأنه عليه السلام قد عمل على أن تجىء رسالته مناسبة لظروف البيئة والمجتمع [٤] ، وأنه ليس هناك فى الحقيقة وحى سماوى بل مجرد تلقين بشرى من القس للنبى ، فهو وحى أرضىٌ القسُّ فيه هو أداة توصيل الرسالة لا جبريل ، إذ الإنسان كائن مختار لا آلة صماء تبلِّغ ما يأتيها من السماء كما هو دون أن يكون لها دور تؤديه [٥] ، وأن القَسّ وبنت عمه قد تعاونا بما لهما من خبرة ودهاء وجاه ومال على إعداد محمد للرسالة القادمة وتدريبه وتهيئته باطنيا من خلال قراءة الكتب الدينية وتفسيرها له وخلوة ورقة معه

---

(١) ص ٦ ، ٨ .

(٢) ص ٨٦ .

(٣) ص ٦ ، ٦٣ .

(٤) نفس الصفحة .

(٥) ص ٧ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٨٨ ، ١٨٦ .

شهرا كل عام فى غار حراء حيث يصليان ويتأملان [١]، وأن هذه الخلوة لم تكن غريبة على طبيعة محمد ، الذى كان يميل إلى العزلة والابتعاد عن الناس فى حياته قبل ذلك [٢]، وأنه اقتدى فيها بخلوة موسى وإيلياء (على جبل حوريب) ويحيى (فى بريَّة الأردن) وغيرهم من الآباء الأولين [٣]، وأن محمدا كان عاريا عن أية ثقافة دينية إلى أن التقى بورقة ، الذى ثقفه ودرّبه وربّاه وأعده كى يكون نبيا [٤]، وأن عددا من كُتّاب السيرة قد جَمْجَمُوا بعلاقته بالقس ، وإن عملوا فى ذات الوقت على إخفاء الدور الذى نهض به الأستاذ فى تصنيع تلميذه[٥]، وأن واقعة غار حراء لم تكن إلا رؤيا فى المنام لا حقيقة لها فى الواقع[٦]، وأن الوحى قد فَتَرَ مدةً غِبَّ وفاة ورقة بما يدل على أنه هو مصدر الوحى لا السماء ولا جبريل [٧]، وأنه إلى جانب ورقة

---

(١) ص ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ .

(٢) ص ٤١ .

(٣) ص ٤٣ .

(٤) ص ٤٩ .

(٥) ص ٥٢ .

(٦) ص ٥٥ .

(٧) ص ٣١ ـ ٣٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٩٤ .

كان هناك خديجة وبحيرا وأبو بكر [١] ، كما أن الرهبان المذكورين فى كتاب «قسّ ونبى» بصفتهم أصحاب دور مؤثر فى حياة محمد هم هم الذين ذكرهم صاحب كتاب « فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين »[٢] كقُسّ بن ساعدة وبحيرا وعداس وغيرهم ، بالإضافة إلى اتكاء الكتابين إلى حد بعيد على « السيرة الحلبية » ذات الصبغة الشعبية الواضحة والروايات الغريبة والمبالغات العجيبة التى لم ترد فى الأحاديث النبوية أو كتب السيرة المبكرة مما لا تطمئن إليه عقلية الناقد المدقق . الشىء الوحيد الذى يمكن أن يميز بين الكتابين هو أن الكتاب الأخير يعطى لخديجة دوراً فى توجيه محمد وإعداده وتصنيعه ليكون نبيا أكبر مما يعطيه إياها الكتاب الأول . وبالمناسبة فكلا المؤلفين يؤكد أن ما أتى به هو شىء جديد لم يسبقه إليه سابق ، وإن كان الحريرى يقول ذلك دون طنطنة أو ثرثرة [٣] .

وبالمثل فإن مصطلح « الماورائيات » الذى تَشْغَف بِلَوْكِه الكتب

---

(١) ص ٥٣ ، ٦١ ـ ٦٢ ، ٦٤ .

(٢) ص ٢٥ ـ ٢٦ ، ٥٧ .

(٣) ص ١٢٢ .

التى تحمل اسم « خليل عبد الكريم » (وهو مصطلح لا أذكر أنى وجدته عند غيره من الكتاب المصريين أو العرب) موجود كذلك فى كتاب الحريرى [(١)]. وهناك أيضاً مصطلح « التيولوچى » (بالتاء فى كل المواضع التى ورد فيها من كتاب « فترة التكوين ») [(٢)]، وقد كانت الكتب السابقة التى تحمل اسم خليل عبد الكريم تكتبها بالثاء حسب النطق الإنجليزى لها، فخمَّنت (قبل أن يقع فى يدى كتاب «قسّ ونبى») أن تكون بين الأيدى التى وراء الكتاب الجديد يدٌ استشراقية أو تبشيرية فرنسية، فلما حصل فى يدى كتاب أبى موسى الحريرى ووجدتُ التشابه الرهيب بينه وبين كتاب « فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين » لفت نظرى فيه أن كل مراجعه الأجنبية تقريبا بالفرنسية ، ومن بينها كتاب دانييلو المسمَّى " Théologie du Judéo - Christianisme " فعضّد ما كان قد قام بنفسى مِنْ ظَنّ بهذا الشأن [(٣)].

وهذا التشابه الرهيب بين الكتابين هو سبب آخر ينضاف إلى الأسباب السابقة التى أنبتت حَسَك الشكّ فى صدرى تجاه نسبة

---

(١) ص ١٤٩ ، ٢١٥ .

(٢) ص ٢٧ ، ١١١ ، ١٨٤ مثلا .

(٣) انظر ص ٢١ ، ٢١٩ حيث يذكر المرجع الفرنسى المشار إليه .

الكتب التى تحمل اسم « خليل عبد الكريم » إليه . فالذى فى الكتاب المنسوب إليه هو نفسه ما فى الكتاب الذى يحمل اسم «أبى موسى الحريرى» مع اختلاف بعض التفاصيل هنا وهناك مما لا يؤثر فى فكرة الكتابين الرئيسية وخطوطها العامة كلها . وتفسيرى للأمر هو أن هناك جهة واحدة وراء هذين الكتابين وزّعت الأدوار بحيث يبدو وكأنهما من تأليف شخصين مختلفين وصلا إلى ما قالاه، كلٌ من طريقه هو وبمنهجه هو دون أن تكون له صلة بالآخر . وهو كلام إن جاز على القارئ العادى الخالى الذهن من مثل هذه الألاعيب والترتيبات فإنها لا تروج عند الباحثين المدركين لأبعاد قضايا الصراع الحضارى والمؤامرات التي لا تكفّ عن غزلها ونسجها وحَوْكها المؤسسات المعادية للإسلام ، وعلى رأسها مؤسسات التبشير والتنصير . ومن الواضح وضوح الشمس فى حَمَارّة القيظ أن كلا الكتابين يحاول أن يُدْخِل فى رُوع القارئ المسلم أن محمدا ما هو إلا صنيعةُ أيدٍ بشرية نصرانية وأنه لم يأت بأى شىء جديد ، ولا علاقة له بالسماء ولا بالوحى الإلهى . وبالنسبة للكتاب الذى يحمل اسم «خليل عبد الكريم» فسوف يلاحظ القارئ أن فيه بعض الهجوم الذى لا قيمة له على أتباع الكتاب المقدس وبعض شخصياته ، لزوم

الشُّغْل حتى تجيء الطبخة أكثر سبكًا وأفوح بالروائح التى تتحلب لها الأشداق كقوله مثلا عن سيدنا يوسف : « الفتى الحليوة » [(١)]، وكهجومه على پولس واتهامه له بإفساد النصرانية [(٢)] . وهى إضافات لا تغضب المؤسسات المذكورة فى شىء ، فهى موجهة إلى المسلمين لا إلى أهل الكتاب ، والتاجر المضرِّس هو الذى يغرى عملاءه ببعض التخفيضات والتضحيات والخسائر البسيطة بغية كسب ثقتهم المطلقة وتخديرهم وتطويعهم لما يريد بعد ذلك . فهم فى ذلك كما قال المثل العربى القديم : « أوْسَعْتُهم شَتْمًا ، وفازوا بالإبل » ، إذ ماذا يفيد صاحبَ الإبل المسروقة إذا أشبع سارقيها شتما ما داموا قد استولَوْا عليها ورحلوا بها ؟

ومما يجعلنى أستبعد أيضًا تأليف خليل عبد الكريم لهذا الكتاب ما فيه من تصورات ومفاهيم ومصطلحات كتابية غربية لا تعرفها العقلية التى تربت فى جو إسلامى حتى لو أصبح صاحبها كافرا بمحمد ودينه ، مثل تسمية أنبياء بنى إسرائيل بـ « البطاركة /

(١) ص ٣٨٤ .
(٢) ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

البطارقة) أو بمرادفها العربى : « الآباء الأولين » . وقد تكرر هذا كثيرا بصورة عجيبة [(١)] . ومن ذلك أيضًا تسميته إبراهيم ويحيى عليهما السلام بـ « أبراهام ويوحنا » [(٢)]، وهى من الدقائق التى فات مَنْ وراء الكتاب أن يتلافاها فيستبدل بالاسمين المذكورين صيغتيهما العربيتين . ومثل ذلك اسم « ملاك الربّ » ، الذى تردد كثيرا فى الكتاب [(٣)]، وهو مصطلح نصرانى لا يمكن أن تخطئه العين ولا الأذن !

كذلك رأينا المؤلف يتحاز دون أدنى داع إلى صفية ضد عائشة (رضى الله عن الاثنتين ، ولعن العِلْج السمج الذى يتطاول إلى التدخل بينهما) رافعا الأولى وقومها اليهود إلى عَنان السماء ، ولامزاً الثانية لمزاً يظن أنه يسىء إليها ويحقر من شأنها هى وأبيها والعرب والمسلمين أجمعين ، وهو ما لا يمكن أن يخطر فى بال أى شخص

---

(١) ص ٩٦ ، ١٤٤ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٣٧٠ على سبيل المثال لا غير .

(٢) ص ٢٨٢ .

(٣) ص ١٥٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ على سبيل التمثيل ليس إلا .

ينتسب إلى الإسلام مهما يكن موقفه الحقيقى من هذا الدين ، إلا إذا وقع تحت وطءٍ عنيفٍ لا قبل له به !

ومن هذا الوادى أيضًا استعماله مرارًا لكلمة « أبرشية » [1]، حيث يزعم أن مكة كانت بها أبرشية نصرانية ، وهى كلمة غير معروفة إلا فى البلاد الغربية ، ومن ثم فلا يستخدمها حتى النصارى العرب . ومن فلتات القلم الفاضحة فى الكتاب أيضًا لفظة «الامرأة»[2] ، التى لا يستخدمها على هذا النحو إلا بعض المستشرقين والكُتّاب النصارى فى لبنان ، أما فى مصر فلا نُبقِى على همزتها إلا فى حالة التنكير ، فإذا أدخلنا عليها « أل » حذفنا هذه الهمزة . ومن الأمارات كذلك على أن هناك أيديًا كتابية وراء هذا الكتاب تكرُّر الاستشهاد بالكتاب المقدس فى مسائل الرؤى الدينية والوحى وما إلى ذلك باعتباره الفيصل فى الموضوع [3]، والقول بأن خلوة محمد فى غار حراء هى تقليد يهودى نصرانى أخذه عليه السلام عن خديجة

---

(١) ص ١١٨ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ، ٣٣٧ مثلا .

(٢) ص ١٢٤ .

(٣) ص ٣٥٥ _ ٣٥٦ ، ٣٦٨ مثلا .

عن ورقة عن التوراة والإنجيل [١] ، وكذلك اختصار اسم « سفر إشعياء » مثلا إلى « إش. » ، على عادة أهل الكتاب ، بخلاف المسلمين ، الذين يذكرون الاسم فى مثل هذه الحالة كاملا [٢] . ومن هذه الأمارات أيضًا تحسُّر مؤلف الكتاب على دخول الإسلام مصر ، وتسميته فتحَ عمرو بن العاص لمصر استعمارًا عربيا استيطانيا أتت فى ركابه قبائل كثيرة دهست صعيد مصر ، واتهامه له رضى الله عنه بأنه «فعل الأفاعيل هو وجنوده بمصر المحروسة عكس ما يزعمه حملة المباخر من المؤرخين المحدثين »[٣] . فهل يعقل أن يقول خليل عبد الكريم ذلك ، وهو المنحدر من هؤلاء العرب الذين لولا الفتح الإسلامى المبارك لأرض الكنانة ما فكروا أصلا فى المجىء إلى مصر المحروسة ؟ أم هل كانوا سيأتون حُبًا فى العجل أبيس وعبادته ؟ لقد كان عندهم من الأصنام والأوثان ما يغنيهم عن كل العجول ؟

ثم إن النَّفَس التبشيرى الصليبى النتن ليهب علينا أيضًا من خلال السطور التى تهاجم د. عبد الحليم محمود وتحاول الاستهزاء به والإقلال من شأنه [٤] . ذلك أن الشيخ المبجَّل ، عليه رحمة الله ،

---

(١) ص ٣٧٢ _ ٣٧٣ ، ٣٨٤ .

(٢) ص ٣٥٦ .

(٣) ص ٤٧ .

(٤) ص ١٧٩ ، ٢٨٨ ، ٣٩٢ مثلا .

قد ترجم مثلا كتاباً من الفرنسية عن المسيحية يفضح عوراتها ويتتبع بالتوثيق العلمى ما لحقها على مدى تاريخها الطويل من عبث وتزييف . فهذا هو السبب فى أنْ حَظِىَ هذا العالم الجليل من مؤلف الكتاب بالتطاول على شخصه الكريم ، مع أن ذلك المبشّر الجبان لا يتسامى إلى مقام حذاء الشيخ ، الذى كان من أشجع من عرفتْ مصرُ من مشايخ الأزهر وأنبلهم وأخشاهم لله ، رحمه الله وأسكنه عُلْيَا الجنان .

ومن أوجه المشابهات بين الكتابين بما يعضد ما نقوله من أنهما خارجان من بالوعة واحدة هذا التفسيرُ الحلمنتيشى للآيات القرآنية : فعلى سبيل التمثيل نرى المسمّى « أبا موسى الحريرى » يفسّر قوله تعالى فى سورة « الأحزاب » : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعَدَنا الله ورسوله ﴾ على أساس أن المراد بـ « الأحزاب » فِرَقُ النصارى التى تتصارع فيما بينها حول طبيعة المسيح وصلبه وما إلى ذلك (١) ، مع أن الآية إنما تتحدث عن أحزاب المشركين الذين تجمعوا من كل صوب لمحاربة النبى وأتباعه فى غزوة الخندق كما لا

(١) ص ٢٠ .

يخفى إلا على جاهل حقود قد جعل الله فى أذنه وقلبه وَقْراً ، وعلى عينه غشاوة ! وبالمثل نراه يشرح قوله تعالى من سورة « المائدة » : ﴿لستم على شيء حتى تُقِيموا التوراة والإنجيل وما أُنْزِل إليكم من ربكم﴾ بأن الخطاب فيه موجه إلى المسلمين وأن القرآن يطالبهم بالعمل بالتوراة والإنجيل والقرآن جميعا لا بالقرآن وحده [(١)]. وهذا العِلْج الخبيث قد اقتطع من صدر الآية عبارة «قل : يا أهل الكتاب» ، التى تدل دلالة قاطعة لا مجال معها للعبث التبشيرى الدنس على أن الحديث فيها موجه لليهود والنصارى لا للمسلمين . وعلى نفس النهج الشيطانى يتناول قوله تعالى فى الآيات التالية : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون ﴾ ، و ﴿ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ ، و ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ قائلا إنها تتحدث عن رهبان النصارى وقسّيسيهم [(٢)]، مع أنه لا صلة بينها وبين الرهبان والقساوسة على أى نحو من الأنحاء ، إذ الحديث فيها عن المؤمنين من أتباع محمد ليس غير . وهذا من

---

(١) ص ١١٧ .

(٢) ص ٢٠٤ .

الجلاء بحيث لا يمكن أن يفسّرها بغير ذلك إلا وغد لئيم ! وغير ذلك كثير . وواضح ماذا يريد أن يقول هذا المبشر . ولسوف نرى فيما يلى من صفحاتٍ مِثْلَ هذه التفسيرات البهلوانية فى الكتاب الموضوع عليه اسم « خليل عبد الكريم » .

ثم أخيراً وليس آخرا ينبغى ألا يفوتنا هذا المقدار الهائل من الروايات المستكنّة فى أعماق الكتب القديمة مما جعل المستشرقون وُكْدَهم تقصّيَه واستخراجه بملقاط الغلّ الأسود وشَبْك بعضه ببعض شَبْكًا متعسفا متمحّلاً والخروج منه بنتائج لا تُسْلِم إليها المقدمات . وقد قلت إن ما نعرفه عن خليل عبد الكريم لا يساعد عقلى على الاطمئنان إلى أنه هو صاحب كل هذا . خذ مثلا عندك أسماء النبى وصفاته وألقابه التى تجاوزت العشرات والتى يحرص مؤلف الكتاب على استخدامها (بدلا من لقب النبوة أو الرسالة) بطريقة استهزائية مثل « الخاشع » و « الخاضع » و « المسعود » و « آكل الشعير » «والمُعْطَى الوسيلة» و « سعد الخلائق و « البهىّ » و « الخالص » و«راكب الأتان » و « صاحب النّعلين » ... إلخ ، إلخ. إن يد الاستشراق والتبشير واضحة هنا أيضًا . وإذا كانت اليد الذى ألفت الكتاب تظن أنها تستهزئ بالرسول الأعظم حين تسميه

«صاحـب النعليـن» أو « راكب الأتان » مثلاً فإنى أذكّر هذه اليد النجسة الآثمة بأن من البشر أشخاصًا بلغوا الغاية فى السموّ والنبالة تُمْدَح النعال لتشرفها بملامسة أقدامهم كما فعل المقَّرِىّ مع نعال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ ألف كتابا عنوانه « فتح المتعال فى مدح النِّعال » ، على حين أن ثمة أناسا (أو بالأحرى : بغالا) كهؤلاء المستهزئين بمحمد عليه السلام لا يستحقون إلا الضرب بالنعال ، بل إن النِّعال لتشمئز من أن تُصْفَع بها وجوههم وأقفاؤهم تحرزا من التنجس بملامستهم . ولعل بعض المؤلفين يضعون لنا فى هذه المسألة كتابًا بعنوان « اشمئزاز النعال من صفع البغال » . ثم ماذا فى ركوبه عليه الصلاة والسلام الأتان أيها الأنتان ؟ ارْعَوُوا وادخلوا جحوركم لا يَحْطِمنَّكم أحقرُ نَفَرٍ من أتباع محمد بنعالهم وهم منكم مشمئزون !

بعد هذا كله كيف تُواتِى صاحبَ الكتاب الذى نحن بسبيله الآن نفسُه على الذهاب مع الدعاوى العريضة بأنه ابن بَجْدَتها الذى أتى بالفتح المبين فى كشف الوحى المحمدى وسَبَق الأولين والآخرين رغم أن الكتاب مأخوذ من كتاب « قسّ ونبى » إلا ما ليس له قيمة تذكر ؟ بعضا من حُمْرة الخجل أيها الأنجاس المناكيد !

وبعد ، فمسألة الكتب وانتحالها ظاهرة معروفة ، وبخاصة فى

ميدان الكيّد للإسلام . ذلك أن حَمْل الكتاب الذى يهاجم ديننا اسمَ مـؤلف إسـلامى أَقْـمَنُ أن يكون له تأثيـر أقـوى فى نفـوس القـراء المسلمين . ولدينا من هذه الكتب على سبيل المثال كتاب « مقالة فى الإسلام »[١] لجرجيس صال (George Sale) أحد مترجمى القـرآن الكريم إلى الإنجليـزية ، فـقـد نقله بعـضـهم إلى العربيـة فى الثمانينات من القرن قبل الماضى وتسمّى على الغلاف باسم « هاشم العربى » ، وهى (كمـا ترى) تسمية إسلامية صرف ، ثم تظاهَرَ بأنه يريد أن يزيد القراء تعريفا به فوصف نفسه بأنه « نزيل البلاد الإفرنجية حالا » ، فبدلاً من أن يكحّلها أعماها ، إذ ماذا تعنى هذه العبارة إلا مزيدا من الغمـوض والتحيير ؟ والذى أراه أن المترجم هو أحـد أدباء النصارى اللبنانيين فى ذلك الوقت لأن مِيسَم الأسلوب الذى صيغ به الكتاب يقول هذا بأعلى صوته . كـمـا أن المتسمّىَ بـ « أبي موسى الحريرى » نَفْسَه قد أبدى تشككه فى اسم « هاشم العربى » هذا ، إذ وضع علامة استفهام بين قوسين بعد الاسم[٢] .

---

(١) هذا الكتاب هو ، فى الأصل ، المقدمة الطويلة التى أثبتـها سيل (Sale) فى صدر ترجمته للقرآن بعنوان « The Preliminary Discourse » مضافا إليها تعليقات المترجم التى هاجم فيها سيدنا وسيده رسول الله بقلة أدبٍ سفيهة.

(٢) ص ٢١٨ مثلا .

وكلنا أيضًا نعرف قصة الرسالة التى حصل بها منصور فهمى على درجة الدكتورية فى أوائل القرن العشرين من فرنسا والتى صوّب فيها سهام الاتهام الحمقاء إلى الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم تبرأ مما جاء فيها بعد ذلك وعاد إلى دينه كرة أخرى . هذه الرسالة يؤكد محمد لطفى جمعة ، وهو ممن تعلموا أيضًا فى فرنسا فى ذلك الوقت، أن المستشرقين قد أخذوا فهمى إلى هولندا وكتبوها وطبعوها له هناك ، وأن دوره فيها لا يتعدى قبوله وضع اسمه عليها حتى تروِّج بين المسلمين ويكون أثرها فيهم أعنف (١) .

كذلك أورد د. محمد سيد أحمد الـمُسَيَّر حالة أخرى من هذا القبيل ، وهى كتاب « لماذا القرآن ؟ » (الذى صدر فى ليبيا لمؤلف يدعى د. عبد الله الخليفة) وكتاب « قراءة فى صحيح البخارى » (لمؤلف يدعى د. أحمد صبحى فى الهجوم على السنة النبوية) ، فهما كتابان متشابهان تشابهًا ضخمًا بل يكادان يتطابقان ، ومع

---

(١) انظر رابح لطفى جمعة / محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام / عالم الكتب/ ١٩٩١م / ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ، ومحمد لطفى جمعة / قطرة من مداد لأعلام المتعاصرين والأنداد / عالم الكتب / ١٩٩٨م / ٢٩ ـ ٣٠ .

ذلك فقد صدر كل منهما فى بلد مختلف ولمؤلف مختلف [١].

فإذا جئنا إلى دراسةِ ما فى كتاب « فترة التكوين فى حياة الصادق الأمين » (الذى بلغنى أن النية كانت متجهة لتسميته «تصنيع نبى» ، بيْدَ أنهم خَشُوا مغبة هذا التهور وآثروا أن يستروه بورقة توت فأعطَوْه العنوان المذكور) ، فماذا نجد ؟ نبدأ أولاً بما فيه من تناقضات بعضها داخلى ، وبعضها مع أفكار تضمنتها الكتب السابقة التى تحمل اسم « خليل عبد الكريم » .

ونبدأ بتناقض موقفه من أُميَّة النبى . إنه يبدأ الفصل الأول المسمَّى « قيدام » [٢] بقوله : « نحن نؤمن أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يطالع صحيفة أيا كانت المادة المصنوعة منها ولم يمسك قلما ولم يخط بيمينه كلمة ولا حرفا .

---

(١) انظر مقدمة د. المسيِّر لكتاب والده د. سيد أحمد رمضان المسيِّر « السنَّة مع القرآن » / دار الندى / ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م / ٢٣ وما بعدها .

(٢) وهو عنوان لا على الفصل وحده بل أيضًا على الخزى والعار اللذين باء بهما الكاتب حين استخدم هذه الكلمة ظنا منه أنها تعنى « القادم » (أى النبى المنتظر) ، بينما هى تعنى « القُدَّام » كما سلف بيانه .

ومع تقديرنا للبُحّاث الذين أجهدوا أنفسهم لإثبات أنه لم يكن أميا بل كان يعرف القراءة والكتابة فإننا نرى أن ما طرحوه لا يعدو أن يكون قرائن لا ترقى إلى رتبة الأدلة » [١].

ويلاحظ القارئ الكريم أن الكاتب يبدأ كلامه بأنه « يؤمن ... إلخ »، وهذا كلام فارغ ، فهو لا يؤمن بأى شىء فى هذه القضية ولا فى غيرها بل مرة يقول بهذا الرأى ، ومرة يقول بعكسه ، أى أنه كالريشة فى مهب الريح . ذلك أنه يعتمد هنا فى القول بعدم معرفة الرسول عليه السلام القراءة والكتابة على وصف القرآن له ولقومه بالأُمِّيَّة ، أى أن الأمية إنما تعنى عنده عدم القراءة والكتابة [٢]. لكن خليل عبد الكريم ، فى أحد الحوارات الصحفية ، يقول بعكس ذلك تماما ، إذ فسَّر الأمية الواردة فى القرآن بأن المقصود بها الإشارة إلى الأمم الأخرى من غير اليهود ، أى الأمم التى لم ينزل عليها كتاب سماوى [٣]، على حين أن الكتاب الأخير يحمل بعنف على من

(١) ص ١٥ .

(٢) ص ١٥ _ ١٦ .

(٣) انظر الحوار الصحفى الذى أجراه معه أيمن شرف فى صحيفة « الدستور » / ٢٨ يناير ١٩٩٨م / ص ١٦ .

يفسّرون الأمية بهذا المعنى . فأين الإيمان هنا ؟ وما هذه النفخة الكذابة الفارغة فى استخدام ضمير الجمع « نحن » ؟

وبالمثل يجد القارئ فى كتاب « شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة ـ محمد والصحابة » ، الذى يحمل اسم «خليل عبد الكريم» أيضًا اتهاما للرسول عليه الصلاة والسلام بأنه كان يحرص على الاطلاع على الكنز المعرفى الدينى الثمين الذى كان فى جَعْبَة سلمان الفارسى ليستعين به فى صناعة القرآن [1] . فلماذا يحرص النبى على الاختلاء بسلمان طوال الليل فى بيته صلى الله عليه وسلم إذا كان ورقة وخديجة حسبما جاء فى الكتاب الذى بين أيدينا قد ظلا يعلّمانه ويقرآن عليه الكتب الدينية ويشرحانها له ويستعيدانه ما سمع نحو خمسة عشر عاما إلى أن تأكد لهما أنه قد تمت (كما يقول الكتاب التافه السخيف) بَرْمَجَتُه بما لقناه إياه حتى صار لا يخرم منه شيئا بسبب ذاكرته الحديدية التى لم يكن يفلت منها شيء ؟

وفى الصفحة التاسعة عشرة نراه يؤكد أن تجربة تصنيع النبى التى

---

(١) ص ١١٤ من الكتاب المذكور . سينا والانتشار العربى / ١٩٩٧م / ١٤٤

قامت بها خديجة وورقة لا تنفى جانبها الغيبى ، إذ لا تعارض بين الأمرين ، لكنه بعد قليل يبين أن الإيمان بالخوارق والمعجزات (التى يسميها مخاريق وشعبذات ، وهى تسمية لها دلالتها المفضوحة التى لا تخفى على أحد) هو جزء من ثقافة البيئة العربية المتخلفة ينبغى أن يؤخذ فى الحسبان عند الكلام عن هذه البيئة . وزادَ فنَفَى فى الصفحة الخامسة والثمانين بعد المائة أن تكون حادثة الغار (وهى الحادثة التى تَوّجَتْ جهود ورقة وخديجة مع محمد بالنجاح الساحق حسبما يدّعى هذا المبشّر المحترق) من الخوارق بل هى نتيجة المجهود البشرى الذى قام به الاثنان. وهو ، كما ترى ، تناقضٌ فِجٌّ صارخ . ويزيده فجاجةً صراخُ المؤلف المستمر عن موضوعيته ورؤيته العلمية الثاقبة التى لا يَخِرّ منها الماء !

كذلك نُلْفِى الكاتبَ فى الصفحة التاسعة عشرة يصف النبى عليه السلام بأنه كان أمام خديجة ابنًا لينا خاضعا مسالمًا لا يعرف إلا الطاعة والموافقة لا زوجًا مشاكسًا جدلا ، مؤكدا أن هذا النموذج السهل الخَبْتَ هو النموذج المطلوب لإنجاح التجربة التى أرادت خديجة من خلالها تصنيعه صلى الله عليه وسلم نبيا ، ليعود فينقلب على نفسه بعد سطور قائلا إن خديجة كانت تريد ممن يشاركها

التجربة (أى من محمد صلى الله عليه وسلم) أن يصير ضريبًا لها فى الحزم والعزم [١]. بل إنه لَيُلِحّ على أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان يتمتع بعبقرية عجيبة وأخلاق سامية مدهشة وخصائص باهرة لا يتصف بها أى إنسان غيره ، لأنه فذ فريد فى بابه [٢]. فمن الواضح أن كلام الكاتب فى هذا الموضوع هو ، رغم الطنطنات والحذلقات ، رجراج سخيف لا قيمة له !

والمؤلف يبدئ ويعيد فى القول بأن ورقة وخديجة قد تعاونا إلى أقصى مدًى بهدف تثقيف محمد (أو « قَلْوَظته وصَنْفَرته وتلميعه » بلغة المساطيل التى يعجّ بها الكتاب) ، ونحن بدورنا نسأله: إذا كنت أنت نفسك قد قلت إن ورقة أراد قبلا أن يتزوج خديجة لكنه لم يوفَّق إلى ذلك ، وإن أخته قتيلة الكاهنة قد حاولت أن يعاشرها عبد الله (والد الرسول عليه السلام) كيما ينتقل إليها النور القدسى الذى كان فى وجهه فصدّها وذهب إلى آمنة زوجته فعاشرها فحملت منه بالقادم المنتظر [٣]، فكيف يمكن أن ينسى ورقةُ هذا كلّه ويمدّ يد

(١) ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) ص ٣٧ ـ ٣٨ ، ١٩٢ مثلا .

(٣) ص ٣٦ .

التعاون إلى خديجة ليصنع من محمد نبيا رغم أنه قد نال هو وأخته على يده ويد أبيه القهر والهزيمة المُذِلّة ، ما دامت المسألة كلها تدبيرا بشريا لا دخل فيه للسماء ولا للخوف من الله أو الرجاء فى ثوابه ؟ أرجو من أحد العقلاء أن يخفّ لنجدتى فقد احتار دليلى مع هذا المبشّر المستخفى الذى بلغنى أن بعض الناس قد قال عنه إنه يكتب بيديه ورجليه ، بينما أرى أنا أنه إنما يكتب ، ويفكر أيضًا ، بحوافره !

وقد مرّ بنا فيما سلف من صفحات ما قاله المؤلف فى موضع من كتابه من أن خديجة قد «جَفّ ريقها وحفيت قدماها وداخت السبع دوخات ... حتى وافق إمامُ الأولين والآخرين على خِطْبتها فنكاحها» ، وساقت إلى محمدٍ المراسيل من ذكور وإناث وأحرار وعبيد وموالٍ وأقارب وأباعد ، وظلت تحاصره إلى أن سلّم لها ورفع الراية البيضاء بعد « عصلجة » منه شديدة ورضى أن يتزوجها [(١)] . ولكننا نسمعه فى موضع آخر من ذات الكتاب يعدد الفوارق التى تميز خديجة على محمد فى الحسب والمال والخبرة والثقافة ، ثم يختم قائلاً إن محمدا لم يكن يصدّق أن خديجة ترضى بالزواج منه [(٢)] .

---

(١) ص ٣٩ ، ٤١ _ ٤٢ ، ٥١ _ ٥٢ ، ٦٤ _ ٦٦ ، ٣١٠ .

(٢) ص ٢٨٩ .

فبأى الكلامين نأخذ ؟ حسبنا الله ، ونعم الوكيل !

ومن تناقضات الكاتب أيضًا تأكيده أن العبيد المكيين النصارى المعاصرين للرسول عليه السلام « كان فى لهجتهم أو لغتهم عجمة ، وفى لسانهم حُكْلَةَ مما يجعلهم عاجزين أو معوّقين عن نقل ما لديهم من علم . هذا مع التسليم الجدلى البَحْت بأنهم يحوزون علما . وحقيقة أن محمدا ، بما أوتى من فصاحة ورُزِق من بلاغة ونُفِح من لَسَنٍ ومُنِح من ذرابة ، كان فى مقدوره ترجمة ما يتلقاه منهم إلى اللسان العربى المبين . بيْدَ أن المشكلة الكبرى تكمن فى البداية ، وهى صعوبةُ أو عُسْرُ توصيل ما عندهم من معارف إلى محمد . وهذا مُشَاهَدٌ فيمن يريد أن يشرح وجهة نظره بلغة لا يجيدها فيعسر عليه ذلك »[1] . عظيم ، ولكن ماذا نفعل فى النص التالى الذى كتبه المؤلف فى موضع آخر من كتابه والذى يقول فيه عن هؤلاء العبيد أنفسهم : « لا شك أنه دارت حوارات بينهم وبين سادتهم ، وبعضهم بلغ درجة لا بأس بها من الثقافة الدينية مع إجادته القراءة والكتابة ، وتملّك أو حاز نفرٌ منهم إصحاحاتٍ وأبعاضا من الإنجيل

(١) ص ١٧ .

... ومنهم من كـان يشرح لسادتهم أمور دينهم وأحوال بلادهم ويقصّون عليهم ما حفظوه ووعَوْه من أخبار الماضين وقصص الراحلين » [١]. والآن ما العمل ؟ أنقول إن الكلام الأول كان فى الصفحة السابعة عشرة ، على حين أن الكلام الثانى موجود فى الصفحة السادسة والأربعين بعد المائة ، فالمسافة بين الصفحتين من الطول إذن بحيث تسمح لأولئك العبيد أن يتغلبوا على عُجْمتهم وحُكْلتهم وأن يتعلموا العربية ويحسنوا الحديث والتعبير بها عن أعقد الأفكار والمشاعر؟ ولم لا ؟ إن الفرق بين الموضعين هو مائة وثلاثون صفحة ، كل صفحة تنطح صفحة ، وهو فرق هائل يمكن أن تتحقق فيه المعجزات !

ومما يلفت النظر أيضًا الحملةُ العنيفة الشعواء التى يشنها المؤلف فى عدة مواضع من كتابه على المستشرقين مُسَفِّهًا لعقولهم وأفكارهم ، ومتّهما لهم بالجهل باللسان العربى والعجز عن فهم الكتب العربية فهمًا صحيحًا ، وداعيا إياهم إلى أن يأتوا فيَجثُوا بين يديه ليرتشفوا من رحيق علمه الصافى ، وضاحكًا منهم ومن جهلهم

(١) ص ١٤٦ ـ ١٤٧ . والجزء الذى تحته خط نَقَلَه الكاتب من د. جواد على .

لدرجة « الاستلقاء على القفا » حسب تعبيره ، وناعيًا عليهم «عباطتهم» وانغلاق بصائرهم [١] . وقارئ هذا الكلام لن يصدق أن صاحبه هو هو نفسه الذى رفعهم إلى أعلى علّيّين فى كتاب آخر من الكتب التى تحمل اسم خليل عبد الكريم أيضاً ، وإن استثنى من هذا التمجيد الطائفة التى أسلمت منهم ، إذ رماها بالفجاجة والضمور الفكرى والهزال [٢] . فالمسألة عند صاحب هذه الكتب ، كما هو واضح ، ليست مسألة تحقيق علمى موضوعى بل مسألة حالات لا ضابط لها ولا رابط ، اللهم إلا كُرْهه القاتل للإسلام ونبيه ورموزه الأطهار الشرفاء . والحالة التى بين أيدينا الآن تستلزم التطاول على المستشرقين من أجل إيهام القارئ المسلم أن الكاتب يعادى الاستشراق ولا ينطلق من نقطة الكراهية لدين محمد .

ولا مانع عند المستشرقين أن يُقَلِّل من شأنهم ظاهريا ما دام الهدف الذى يصوب الكتاب إليه سهامه السّامّة هو نفس الهدف الذى يتغيَّوْن ، وهو ضرب الإسلام فى مقتل . وإذا كان الكتاب يتضمن

---

(١) ص ١٦ ، ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، ٣٩٣ .

(٢) انظر « شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة ـ محمد والصحابة » / ١٦٦ ـ ١٦٧ .

كل هذا القدر الهائل البشع من البذاء والاستهزاء بمحمد ، فلا مانع أن ينال المستشرقين شيء من تقليل الشأن الذى يُعَدّ ، بالقياس إلى ما وُجّه إلى الرسول الأكرم ، دغدغة من الحبيب لحبيبه . ومع ذلك كله فإن اللعبة مكشوفة بل مفضوحة لا تجوز على أحد !

ونمضى مع مخازى الكتاب الأخرى ، بيد أننا لن نتناول إلا عينة محدودة من ألوان الخَبَل الفكرى التى يفيض بها . ونبدأ بالسؤال التالى، وهو يتعلق بالفكرة الأساسية التى يدور عليها فنقول : إذا كانت خديجة تؤمن بأن هناك نبيا قادما فكيف يخطر فى ذهنها مجردَ خُطُورٍ أن تقوم هى بتعليمه وتدريبه وتثقيفه وتوجيهه أو ، حسب لغة الحشاشين والحوذية ، بـ « صنْفَرَته وقَلْوَظَته وتلميعه » ؟ كيف يا ترى يمكن لبشر عادى ، بالغا ما بلغ تفوقه العقلى وسموّه النفسى وامتيازه الخلقى ، أن يصنع نبيا ؟ أأرادت بعملية « الصنفرة والقلوظة والتلميع » أن تتدارك مقدّما ما يمكن أن يقع فيه الله سبحانه وتعالى من سهو أو نسيان فيَخْرُج نبيه من تحت يده غير مُصنْفَرٍ أو مُقَلْوَظ ؟ أأنا فى حلم أم فى علم يا إلهى ؟ أهذا كلام يقوله بشر ، أم نَعِيرٌ مما تصيح به البقر ؟ وحتى لو جارينا أصحاب هذا التفكير (أو بالحَرَى :

«النّعير») ، فهل تستغرق هذه العملية ، وبالذات مع شخص عبقرى كمحمد (حسبما وصفه الكتاب مرارا) ، خمسة عشر عامًا ؟ إن المقصود بالتثقيف هنا هو قراءة التوراة والإنجيل عليه وشرحهما له ، فما الذى فيهما مما يمكن أن يستغرق شَرْحُه وفَهْمُه خمسة عشر عامًا، ومحمد ، طبقا لشهادة ذلك المبشّر له أكثر من مرة ، كان كالكمبيوتر فى الحفظ والاستيعاب والقابلية للبرمجة ؟ والله لو كان كمبيوترَ وزارة الداخلية ذاتَه الذى تتهمه صحف المعارضة بالضلال المبين ما أخذت منه المسألة خمس عشرة ثانية ! ثم لماذا لم تُحْضِر له مدرسًا خصوصيًا يعلمه القراءة والكتابة ليقرأ الكتب بنفسه بدلاً من « خَوْتة الدماغ » التى كانت تتكبدها ؟ ألم أقل إن المبشر الذى ألّف هذا الكتاب إنما يفكر بحوافره ؟

إنى دائمًا ما أقول إن أهل الغرب ذوو عقول منظمة وتفكير مستقيم ، إلا أن يُذْكر أمامهم محمد ، فعندئذ يرتدّون كالأطفال فتتأتئ عقولهم وتفأفئ ! إن ذِكْر محمد أمامهم يُشِلّ منهم الأذهان ! وإلا فأَنْشُدك الله أيها القارئ أن تحاول تفسير هذا البِراز الذى يلطخون به الأوراق كلما أرادوا أن يتحدثوا عن الإسلام . إنك تنظر إليهم ، وهم يتحدثون فى أى موضع خلا الإسلام ونبىّ الإسلام ، فتجد لهم

فى وجوههم أفواها ، وتنصت إلى هذه الأفواه فتجدها تصدر كلاما ، لكن ما إن يتحول الحديث إلى محمد حتى تفاجأ بأن هذه الأفواه قد انقلبت إلى أستاه لا يصدر عنها إلا الضراط والخراء ! ثم تساؤل آخر : إذا كانت خديجة تستطيع أن تصنع نبيًا ، فلماذا لم تحاول أن تجعل من نفسها هى نبية بدلاً من تجشُّم عناء القراءة والشرح والتسميع ... إلخ خمس عشرة سنة مع محمد ؟ لقد زعم المؤلف أنها كانت نصرانية . والنصارى (واليهود أيضًا) ، كما هو معروف ، يؤمنون بوجود نساء نبيات كسارة زوجة إبراهيم عليه السلام ، ومريم أخت هارون وموسى ، وحنة أم يحيى [١] ، أفلم يكن أجدر بها وأليق بحصافتها وحزمها وعزمها أن تضيف اسمها إلى قائمة النبيات لدى أهل الكتاب ما دامت النبوة بهذا اليسر عند صاحبنا ؟ أفلم تكن

(١) فى كتابى « مع الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى » (نشر مكتبة زهراء الشرق) فصل بعنوان « نبوة النساء » فنَّدتُ فيه اعتقاد أهل الكتاب فى نبوة النساء من قلب الكتاب المقدس نفسه . فأنا إذن ممن لا يوافقون على القول بأنه كانت هناك نساء نبيات ، لكنى هنا إنما أجرى مع المؤلف فيما يقول وأنطلق من نفس منطلقه ، وهذه غاية المسامحة من جانبى ، بيْد أن الطرق دائمًا ما تكون مسدودة فى وجهه رغم ذلك .

مثقفة (ومن الإنتلچنسيا أيضًا) كما يقول المتفيهق الوخيم الثقيل الظل؟ [١] أفلم تكن طاهرة (بل « الطاهرة » بألف ولام الماهيـة) ؟ أفلم تكن رَجْلة العزم قوية الشكيمة كما جاء فى الصفحة التاسعة والعشرين ؟ أفلم يكـن أَمَلُها ومُنَى عينهـا أن تقـوم بصنع نبى ؟ فما الذى منعها أن تجعل من نفسها النبية المنتظرة ؟ إن هذا يذكرنا بـ « أذنك من أين يا جحا ؟ » .

بل دَعُونا من هذا كله وتعالَوْا نسأل : لماذا أرادت خديجة أصلاً أن تصنع نبيا ما دام الأمر كله تدبيرا بشريا ؟ وأى تدبير ؟ تدبير هو إلى التآمر أقرب منه إلى استقامة الخلق والضمير . إن هذا يذكرنا بالمثل القائل : « من له مال يحيّره ، يشترى حماما ويطيّره » ! فخديجة، حسب هذه النظرية السقيمة الرذيلة رذالة عقل صاحبها ، كان عندها مال لا يُحْصَى ولا يُعَدّ ، وكانت لا تعرف ماذا تفعل به ، فقالت ذات يوم فى عقل بالها ، وكانت وحدها فى البيت لا تجد ما تفعله : « ما رأيك يا بنت يا خديجة ؟ أنت تسمعين الناس هذه الأيام فى كل مكان يتحدثون عن القادم المنتظر ، فماذا لو بادرْتِهم أنتِ

(١) ص ٩ ، ١٩١ ... إلخ .

واتفقْتِ مع ابن عمك ورقة بن نوفل مدير « مصنع تجميع وتركيب وقَلْوَظَة الأنبياء ـ نوفل إخوان » على أن « يصنع » لك حتّة نبى على هواكِ ، « ويصنفره ويقلوظه » مع ضمـان سنة ، ويوصّله لك إلى البيت فتضعيه فى البهو على يمين الداخل بعد « تلميعه » من غبار الطريق لتكيدى به العواذل والأعادى من أمثال أم هانئ ؟ والنبى يا خديجة لتكونن هذه قنبلة الموسم ! » .

ألا خيبة الله على التافهين ! بالذمة أهؤلاء رجال ؟ أيمكن أن يكون رجلاً من يقول عن سيد الأنبياء والمرسلين إنه بحاجة إلى صنفرة وقلوظة وتلميع ؟ إن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يدور إلا فى است (لا فى عقل) مبشّر قد ثارت به وَجْعاؤه أياما وليالى ذات عدد فلم يجد من يشفيه من دائها ! أخزاكم الله أيها المبشرون المناكيد ! إن مَنْ بيتُه من زجاج لا يرمى الجبال الرواسى الشماء بحجر ! ترى ما الذى يمنع الكاتب الفلحاس أن يجعل من نفسه نبيا ما دامت النبوة سهلة إلى هذا الحدّ؟ فلْيُرِنا مهارته ، وها نحن أولاء منتظرون ، وأيضًا متيقنون أنه سيموت صفعا بالنعال القديمة على أيدى جماهير « المستضعفين فى الأرض » الذين يتفيهق بأنه وأمثاله

هم الناطقون باسمهم ، المدافعون عن مصالحهم ، الميّتون فى هواهم!

أوه ! لقد نسينا للأسف فى زحمة الكلام ورقة بن نوفل ، الذى كان أستاذا لأستاذة محمد وقسيساً لكنيسة مكة طبقا للنظرية الرقيعة . فيا ترى لماذا لم يتقدم هو ، وهو رجل جاهزٌ وملء هدومه ثقافةً وإخلاصا وتقوى ، ويعرف العبرى (وربما السريانى والآرامى والحبشى وسائر اللغات السامية أيضًا) ، ويترجم من الإنجيل إلى العربية « ترجمة رائعة ودقيقة » (على حدّ وصف أحد النقاد المصريين لكل ترجمة يكتب عنها رغم أنه لا يعرف أية لغة أجنبية) ، فينصّب نفسه نبيا ؟ ألم تكن خديجة تموت رغبةً فى الفوز بالقادم المنتظر ؟ ألم يكن هو يحب خديجة ويبغى الزواج منها فلم يوفّق ؟ تاهت ولقيناها ، فهذه هى الفرصة التى لا ينبغى أن يضيّعها من يديه بهذه البساطة : يدّعى النبوة ، ولن يحتاج الأمر عندئذ خمس عشرة سنة ولا حتى خمس عشرة دقيقة لأنه ، كما قلت ، جاهز من فوره ، على عكس محمد ، الذى يصوره لنا شُذّاذ التبشير فتًى خامًا مليطا من الثقافة عَرِيًا من التجربة والذى سيجشمه من تعب الإعداد وإرهاق التدريب ما تضيق به الصدور . ما عليه إذن إلا أن يقول : أنا نبى ، وموسى نبى ، وعيسى نبى ، وكل من له نبى يصلّى عليه ! فيرد عليه

جمهور أبرشيته فى صحن كنيسة مكة قائلين : « اللهم ، صلّ وسلّم عليك يا نبى ! » ، وبهذا تنفضّ السيرة كلها فى لحظات !

ولكن قبل أن نترك ورقة نجب أن نقف وقفة عند قُسُوسَته المزعومة . لقد ورد اسمه فى بعض الروايات الإسلامية مصحوبًا بلقب « القَسّ » ، فهل كان ، رضى الله عنه ، قسًّا فعلا ؟ لقد كان الرجل يعيش فى مكة ، ولم تكن فى مكة كنيسة على عكس ما يدّعى مؤلف الكتاب الذى نحن بصدده وكذلك صاحب «قسّ ونبى» (الذى يذكرنى عنوانه بـ « الراقصة والطبال » و « ياسين وبهية » و«حسن ونعيمة» و « مبروك ومقبولة » وغيرها من عناوين الأفلام والتمثيليات المشابهة) ، وإلا فَلْيَدُلّنا أحدهما على مكان تلك الكنيسة ، اللهم إلا إذا قال لنا إن ورقة كان يضعها دائما فى جيبه لا يُخْرجها ولا يريها لأحد فى حِلٍّ أو ترحال (لأنها أيضًا كانت كنيسة « نُونُو » كـ « المحفّظ » (بسلامته) الذى لا يستطيع التلفظ بالهاء فيقول « الأيْئَة » بدل « الهيئة ») ! وهأنذا أضع بين يديه « دائرة المعارف الإسلامية : The Encyclopaedia of Islam » ، التى كتبها المستشرقون من يهود ونصارى وملاحدة ، فليدلنا إن كان صادقا على أى موضع فيها يقول إن مكة كانت بها كنيسة .

إن المؤلف النحرير يزعم أن مكة كانت تعج بالنّصارى (١)، لكنه لم يُحِلْ فى ذلك إلى أى مرجع . أما أنا فيكفى أن أستشهد بلامنس المبشر الأسود القلب الذى يقول فى كتابه "L' Islam - Croyances et Institutions" إن النصارى المكيين إبانئذ لم يكونوا يشكلون سوى حفنة ضئيلة . وهذا نص كلامه بالفرنسية : "A la Mecque , nous ne pouvons constater que l' existence d'une infime poignée de chrétiens indigènes , à savoir qoraichites "(٢) ذلك أن مثل هذا المبشر البلچيكى المتعصب أشد التعصب لنصرانيته لا يمكن أن يقلّل من أعداد النصارى فى مكة بأية حال . إذن فمزاعم صاحب « فترة التكوين » لا تزيد على كونها سمادير مما يثور فى أذهان المساطيل ! وإلا فأين كان هؤلاء النصارى حين هجم أبرهة بجيشه الجرار يتقدمه الفيل على مدينتهم ؟ أكانوا سيسكتون فلا ينضمون إليه ضد مواطنيهم الوثنيين ؟ أم على الأقل هل كانت الروايات تتجاهلهم هذا التجاهل التام ؟

---

(١) ص ٣٤٢ .

(٢) ص ٢٧ ـ ٢٨ / المطبعة الكاثوليكية ببيروت / ١٩٢٦م .

وقد مرّ بنا قول المدعوّ « أبا موسى الحريرى » إن ورقة كان ينتمى إلى النصارى الإبيونيين الذين لم يكونوا يرون فى عيسى إلها أو ابن إله، وكان الإنجيل الذى يقرأونه هو « الإنجيل بحسب العبرانيين » ، وهذا الإنجيل يخلو من عقيدة التثليث والصلب وما إلى ذلك . وهو نفسه ما جاء فى الكتاب الذى معنا حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنعل[1] . بل لقد ذهب إلى أن كل النصارى العرب كانوا من هذه الفرقة مستدلا على ذلك بأن القرآن الكريم لا يتحدث عن الأناجيل المتعددة التى بيد المسيحيين الآن بل عن إنجيل واحد هو الذى نزل على عيسى عليه السلام . وهو الإنجيل الذى كان يقرؤه ورقة وغيره من نصارى العرب[2] . ومن الممكن جدا فى رأيى أن يكون ورقة وأمثاله هم وحدهم من موحّدى النصارى دون سائر النصارى العرب ، وإلا فلو كان العرب جميعا على النصرانية الصحيحة التى أتى بها عيسى ، وكان كتابهم هو حقا الإنجيل الذى نزل على ذلك الرسول عليه السلام ، فكيف نعلّل هذا الهجوم الشديد الذى يُصْلِى به القرآن الكريمُ النصارى وإيمانَهم بألوهية المسيح وصلبه ... إلخ منذ فترة

(١) انظر ص ٣٦ ، ١٤٤ ، ١٧٣ ، ٣٧١ مثلا .

(٢) ص ١٧٤ ـ ١٧٧ وغيرها .

مبكرة مـن الوحـى المكـى كقوله تعالى عن ابن مريم عليه السلام: ﴿ قال : إنى عَبْدُ الله آتانىَ الكتاب ، وجعلنى نبيا * ... * ذلك عيسى بن مريم قَوْلَ الحق الذى فيه يَمْتَرون * ما كان لله أن يتّخذ من ولد ! سبحانه ! إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن . فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ (١)، وقوله عز شأنه حكاية لموقف الكفار حين رأوا الرسول محمدا عليه السلام ينكر عليهم شركهم : ﴿ ولما ضُرِبَ ابنُ مريم مثلا إذا قومك منه يَصِدّون * وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟ ما ضربوه لك إلا جَدَلا ، بل هم قومٌ خَصِمون * إنْ هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ ... إلى أن يقول سبحانه على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه . هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ (٢).

أما حديث القرآن عن إنجيل واحد لا عن أناجيل متعددة فسببه أن الله

---

(١) مريم / ٣٠ ـ ٣٧ .

(٢) الزخرف / ٥٧ ـ ٦٥ .

سبحانه قد أنزل إنجيلا واحداً على عبده ونبيه عيسى لا عدة أناجيل ، فهو يحدثهم عما أنزله لا عما سطروه بأيديهم وقالوا : ﴿ هذا من عند الله ﴾ ليشتروا به ثمناً قليلا . وهذا من الوضوح بمكان ، لكن الضمائر الملتوية تعمى عنه عمدا مع سبق الإصرار بغية إثارة الشكوك والعواصف .

أما لقب « القَسّ » الذى كان يُطْلَق على ورقة فلا يخرج عن أن يكون إشارة إلى تقواه وقراءته الإنجيل[1] ، فهو لَقَبٌ مَدْحِىّ لا اصطلاحى . وعندنا أيضا عبد الرحمن صاحب سلامة فى العصر الأموى الذى كان يُلَقَّب بـ«عبد الرحمن القسّ» رغم أنه كان مسلماً. ومعروف أن «القَسّ» فى الأصل هو العالِم عند النصارى ، ثم أصبح يدل على الرتبة الكنسية المعروفة . هذا هو وضع المسألة ، لكن سمادير الخمر لا تترك صاحبنا فى حاله فيتمادى فى دعاواه قائلا إن ورقة ، حين عقد قران محمد على خديجة ، قد عقده بصفته الكهنوتية [2] .

(١) بل إن بعض الدارسين ينكرون مجرد نصرانيته مستندين فى ذلك إلى حجج يؤكدون بها ما يقولون . انظر د. عويد بن عياد المطرفى / ورقة بن نوفل فى بُطْنان الجنة / رابطة العالم الإسلامى / ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م / ٥٧ وما بعدها.

(٢) ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

وهذا كذبٌ صُراح : فالرجل لم يكن قسًّا كما أثبتنا لتونا . وثانيا ها هى ذى العبارة التى استند إليها صاحبنا فى التدليل على أن خُطْبة ورقة فى حفل النكاح المذكور كانت خطبة طقوسية . قال رضى الله عنه: « قد رغبنا فى حبلكم وشرفكم . فاشهدوا علىَّ يا معاشر قريش بأنى زوّجْتُ خديجة من محمد » . فهل هذا ، بالله أيها القراء ، هو الكلام الذى يقوله القسيس فى مثل هذه المناسبة ؟ هل يقول القسيس لأهل الخاطب إننا نرغب فى حبلكم وشرفكم ؟ وهل يمكن أن يكون ردّ وَلِىّ الخاطب على القسيس عندئذ : « قد أحببتُ أن يَشْرَكك عمها » كما قال أبو طالب لورقة بعد انتهائه من خطبته ، اللهم إلا إذا قيل إن عمها كان هو أيضًا قسيسًا فأراد أبو طالب أن تكون البركة مضاعفة ؟ أليست زيادة الخير خيرين على رأى المثل ؟ إن شرّ البلية حقًّا ما يُضْحِك ! طيب ، فأين الإكليل الذى تضعه العروس النصرانية على رأسها فى مثل هذه المناسبة ؟ وأين الزيت المقدس الذى يمسح القسيس به العروسين ؟ وهل يمكن أن نصدق أن خطبة قسيس فى عقد قران يمكن أن تخلو من ذكر الآب أو المسيح أو الروح القدس أو البركة المقدسة أو أى شىء من هذا القبيل؟ يا له من عرس نصرانى عجيب ! وهذا كله لو كان ورقة فعلاً هو

الذى تكلم باسم خديجة ، إذ الروايات الأخرى تقول إن أخاها أو أباها أو عمها هو الذى تولى ذلك ، لكن صاحبنا تجاهل هذا كله ظنا منه أن صنيعه ذاك سيوصّله إلى غرضه ، ولكن هيهات ثم هيهات!

ومن المسائل التى تتعلق بورقة أيضًا إطالة صاحب الكتاب الوقوف عند انقشاع الوحى عن رسول الله فى السنوات الأولى من بعثته وربطه بين ذلك وبين موت ورقة ربط العلة بالمعلول [(١)] ، مع أن الروايات التى اعتمد عليها تعطف الأمرين مجرد عطف بالواو مما لا يفيد تعليلا بل ولا ترتيبا زمنيا . يريد أن يقول إنه لما مات ورقة لم يَعُدْ هناك أحد يُمِدّ محمدا بما يقوله للناس مدّعيا أنه وحى من السماء . وقد نسى الفلحاس أنه قال إن خديجة هى التى كانت تُمِدّ محمدا طوال الخمسة عشر عاما السابقة على البعثة ، فإذا أضفنا إليها السنوات التى مرت بعدها قبل أن يتوقف الوحى أصبح عندنا ما يقرب من عشرين عامًا حسب ما أورده الفلحاس من روايات ، وإلا فالروايات الأخرى تقول إن توقف الوحى إنما تم بعد الدفقة الأولى منه . فأين الطنطنة التى أوجع دماغنا بها طوال الوقت عن خبرة خديجة وذكاء

---

(١) ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

خديجة وثقافة خديجة التى جعلتها واحدة من «إنتلچنسيا» زمانها بجدارة واستحقاق ؟ ألا يكفيها هى ومحمدا عشرون عامًا كى يستطيعا الاستمرار فى أداء مهمتهما دون الاعتماد على ورقة ؟ فكيف استأنفا عملهما بعد ذلك رغم أن ورقة بعد أن دُفِن لم يعد إلى الحياة مرة أخرى ورغم أن الوحى بعدها أصبح أكثر موضوعاتٍ وأعقد حِجَاجا ؟ بل كيف استمر الوحى بعد موت خديجة نفسها ثلاث عشرة سنة وقد ازداد تنوعًا وتعقيدا ؟ شىء واحد يستطيع المبشر السخيف العقل أن يحاجّنا به ، ألا وهو أن الشنطة التى كان يضع فيها ورقة كتبه ومترجماته قد ذهبت عند تقسيم تركته إلى واحد من الورثة يعرف قيمتها لأنه كان من « الإنتليچنسيا الطليعيّين » فرفض أن يعطيها لخديجة إلا بعد مساومات ومداولات استغرقت وقتًا طويلا ، فلما استقرت « شنطة ورقة » (ورقة من ؟ صاحب الشنطة طبعا !) فى يد خديجة عاد الوحى يتدفق من جديد، وانطلقت جماهير «التَّرْسُو» تصفق لهذه النهاية السعيدة للفِلْم بعد أن علّق القلقُ أنفاسَها وقتا طويلا . هل رأى أحد رقاعة بهذه الغثاثة ؟ وبالمناسبة هناك كتبٌ أخرى مبكرة فى السيرة والتاريخ لا تذكر موت ورقة مع توقف الوحى بأية حال ، لكنى لن أقف عند هذا .

ويرتبط بهذه النقطة زعمٌ آخر ، فقد تفلحس المبشّر المستخفى مؤكدا أن السرّ فى عدم زواج الرسول على خديجة هو أنها كانت نصرانية ككثير من قومها بنى أسد ، والنصارى لا يعرفون تعدّد الزوجات. قال ذلك مختالاً منتفشا بعبقريته التى فطّنته لما لم يفطن إليه أحد من قبل من عرب وعجم وفرنجة[١] كما قال ، مع أنه هنا أيضًا إنما يردّد كلام المدعوّ « أبا موسى الحريرى » ! ثم إنه لم يكتف بذلك بل تخيل حواراً بين محمد وخديجة يقول فيه : «حتى لو فرضنا فرضا جدليا أنه فكر فى ذلك (أى فى الزواج عليها بأخرى) ، فإن الرد سوف يجىء من الطاهرة أُمّ هند : أذكّرك يا أبا القاسم (هكذا دأبت على مناداته أ. هـ.) بأن ثقافتنا الدينية تَحْظُره حَظْرًا باتا . وماذا يقول بحيرا وورقة وعداس وناضح وميسرة عنى ؟»[٢]. يا فجورك يا أخى ! أنا أقول لك ماذا سيقول بحيرا وورقة وعداس وناضح وميسرة . سيقولون إن ملفّق هذا الكلام مبشّر رقيع ! ارتحت ؟ انبسطت ؟ هدأ بالك ؟ الحمد لله ! نعود إذن إلى ما كنا بسبيله .

لقد فرغنا من أن عدد النصارى القرشيين فى مكة كلها كان لا

---

(١) ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٢) ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

يزيد على « حفنة ضئيلة » ، فما معنى الطنطنة بأن كثيرين من بنى أسد كانوا نصارى ؟ إن الروايات لا تذكر لنا منهم سوى اثنين لا غير هما ورقة وابن عمه عثمان بن الحويرث ، الذى ذهب إلى قيصر واقترح عليه أن يولّيه مكة ففعل ، فلما عاد ودعا قومه إلى النصرانية هبوا فى وجهه على بكرة أبيهم وطردوه شرّ طردة [١] مما يدل على أن هذه الديانة لم يكن لها أى أتباع تقريبا فى مكة . ثم إن خديجة ، كما يقول الفلحاس ، قد تزوجت محمدا من أجل تصنيعه نبيا ، أى أنها لم تكن راضية بنصرانيتها المزعومة بل تريد شيئا جديدا ، فكيف تحاجّه بها إذن ؟ إن هذا لهو الخَبَلُ بعينه ، وخديجة بنت خويلد أحصف وأعقل وأكمل من ذاك !

والآن إلى القنبلة التى ستنزل على هذا السخف وتلك الرقاعة فتدمرهما تدميرا . لقد تزوج كُلٌّ من جدّ خديجة وأبيها وأعمامها نوفل وحبيب والمطلب وأخيها العوام أكثر من زوجة ، وبعضهم توسّع فى ذلك توسُّعا [٢] . بل إن أخاها العوام قد خلَف أباه على إحدى

---

(١) ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) انظر « نسب قريش » لمصعب الزبيرى / تحقيق ليفى بروفنسال / دار المعارف / ط٣ / ص ٢٢٨ وما بعدها ، و ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، و ٢١١ وما بعدها ، و ٢١٨ وما بعدها ، و ٢٣٥ وما بعدها .

زوجاته [١]، وهو أمر لا تقبله النصرانية . فماذا يقول أبو الفلاحيس في ذلك ؟

هذا ، ولعل القارئ العزيز قد لاحظ الإشارة التى وضعها المتنطع الكذوب بين قوسين يهمز بها خديجة والنبى ، وهى الإشارة التى يقول فيها إن خديجة قد «دأبت» على مناداة الرسول بـ « يا أبا القاسم » ، والتى أوردها بصورة أوضح قبل ذلك فى معرض المقارنة بين عائشة وخديجة ، إذ يزعم أن الأولى كانت تناديه عليه السلام بـ « يا رسول الله » ، أما خديجة فكانت تخاطبه بـ « يا أبا القاسم » أو « يا محمد » إلا فى الشاذ النادر ، لأنها هى التى كانت «توجهه وتطلب إليه وتشير عليه» ، على عكس عائشة التى كانت « تلبّى وتطيع وتمتثل وتأتمر بأمره وتنفّذ وتسمع ... إلخ ، وهو الفرق الواضح الذى لا يحتاج إلى زكانة لمعرفته أو حتى إلى لمسه باليد بين خِطَاب الهِنْدَوْز واستجابة التلميذة » كما ذكر [٢]. يريد أن يقول إن خديجة لم تكن تعترف به رسولاً ، إذ هى التى صنعته بيديها صنْعا .

---

(١) ص ٢١١ .

(٢) ص ١٥٤ .

وهذا كلام ككلام القحبة حين تريد مكايدة السيدة الحرة العفيفة فتقول لها بكل بجاحة ووقاحة وعلى ملإ من الناس : « أنا أشرف منك سلوكا وأطهر أخلاقا » ، وهى تعرف أن صاحبة العصمة والشرف لن تردّ عليها . لكن الأمر عندنا أكبر من هذا الاعتبار ، ومن ثم فلا بد من الردّ على هذا البراز الذى يَسْلَح به فم المبشّر الكذّاب : فخديجة ، حتى لو افترضنا أنها هى التى جعلت من محمد نبيا ، لا يمكن أن تفعل هذا . أليست هى التى حفيت سعيًا من أجل الزواج به وتصييره نبيا حسب نظرية هذا المبشّر الخسيس ؟ فكيف ، حينما نجحت أخيراً وبلغت هدفها بعد تعب خمسة عشر عاما ، تنقلب على عقبيها وتتنكر لكل ما فعلته وبذلته وضحّتْ به ؟ ولم إذن كان كفاح الأعوام الطويلة ؟ وفيم كان إنفاق الأموال الطائلة ؟ وما الحكمة من وراء كل ذلك التكتم الرهيب خوفا على زوجها أن يقتله أهل الكتاب إذا علموا أنه النبى المنتظر حسبما ذكر صاحبنا وكرّر ؟ والله إن مخلوقا يقول هذا عن خديجة لرقيع ! ولقد ردّد الفلحاس نفسه القول مرارا بأن سعادة خديجة بنجاح تجربتها مع محمد كانت لا توصَف ولا تُحَدّ(١) ، فكيف يتّفق هذا مع ذاك ؟ ثم إن ما وصلنا من كلام

(١) ص ٣٣٩ ، ٣٦٨ مثلا .

خديجة إلى رسول الله قليل لا يسوّغ أن نقول إنها رضى الله عنها قد « دأبت » على أن تناديه بهذه الطريقة أو بتلك ، لأن الدأب معناه العادة ، والعادة لا تَصْدُق إلا على الأمر الذى يتكرر حدوثه كثيراً . كذلك فما من مرة نادت رضى الله عنها زوجها الكريم بعد الإسلام إلا وقالت له : « يا رسول الله » ، أما قبل البعثة فكانت تقول له : « يا أبا القاسم » أو « يا ابن عمّ » على قلة ذلك كما قلنا. وإلى القارئ شاهداً على كل من هذا وذاك:

فأما الشاهد الأول فمؤدّاه أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى بداية ظهور جبريل له وقبل أن يتيقن أنه الوحى ، كان يقص على خديجة ما يسمعه ويراه ، فتقول له : « استر يا ابن عم ، فوالله إنى لأرجو أن يصنع الله بك خيراً »[١]. وأما الشاهد الخاص بمخاطبتها إياه بعد البعثة بـ «يا رسول الله» فيتلخص فى أنه حين مات ابنها عبد الله (بعد أشهر من وفاة أخيه القاسم) ، ولم يكن قد فُطِم ، قالت : « يا رسول الله ، لو بَقِىَ حتى أفطمه ؟ قال : فإن فطامه فى الجنة»[٢]. وهذا هو الوضع الطبيعى والمنطقى ، فقبل النبوة لم يكن

---

(١) تاريخ اليعقوبى / دار صادر ودار بيروت / ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م / ٢ / ٢٢ .

(٢) المرجع السابق / ٢ / ٣٢ .

من الممكن أن تلقّبه بها ، أما بعدها فما دامت قد صدّقته ودخلت في الدين الذى أتى به فكيف يمكن أن يدور فى ذهنها هذا الذى يدّعيه عليها المبشّر التالف فتستنكف أن تعترف بأنه رسول من عند رب العالمين ؟

كذلك أثار الكاتبُ المستخفِي غثيانَنا بادعائه المنتن على مدار الكتاب كله بأن خديجة هى التى صنعت من محمد نبيا . فما العمل إذا قلنا له إن عددا من إخوة خديجة قد تأخروا فى الإيمان بنبوة محمد وحاربوه ، بل إن بعضهم مات وهو كافر به[1] ، ومع هذا لم نسمع أيا منهم يرفع فى وجهه صلى الله عليه وسلم هذا السلاح ؟ أمن الممكن أن يصل الأمر بينه وبينهم إلى الحروب والدماء ، وبخاصة من لم يكونوا منهم لخديجة بأشقاء ، ثم لا يعايره أحد منهم بأن أخته هى التى نبّأَتْه وصنّفرَتْه وقلْوظَتْه ؟ لقد قصرتُ القول هنا على إخوتها رضى الله عنها لأنى لو أدخلت معهم أمثال أبى لهب وأبى سفيان وأبى جهل وعتبة وشيبة والوليد وغيرهم من الأباعد لقال الأبعد إن خديجة وورقة قد تكتما هذا الأمر تكتما . أما بالنسبة لأقاربها فما

(١) نسب قريش / ٢٢٨ وما بعدها .

كان لهذا التكتم أن يفلح مهما بالغتْ فيه واحتاطتْ له .

والرّذْل الغثيث يكذب ويدعى على طائفة من كُتّاب السيرة ومدّاحى النبى من الشعراء أنهم قد لحنوا إلى ما قاله هو فى كتابه من أن خديجة هى صانعة النبى ومثقّفته ومُهنّدِمته . قال هذا عن ورقة ، وقاله عن البوصيرى ، وقاله عن طه حسين ، وقاله عن د. عبد الحليم محمود ، وقاله عن غيرهم . ولأنه رقيع وضيع لا يستحى فقد أورد من كتاباتهم النصوص التى زعم أنها تشير إلى ما كانوا يعتقدونه واكتَفْوا بالجمجمة فيه دون التصريح [1] . وهذا جنون مطبق وسعار لا سبيل إلى الشفاء منه ، إذ من ذا الذى يجرؤ على العبث جِهارا نهارا بالنصوص التى تمدح النبى وتمجّده وتبدى انبهارها برسالته صلى الله عليه وسلم وتثنى على خديجة لوقوفها إلى جانب زوجها وإيمانها الراسخ به وبدينه فيدّعى أنها تومئ إلى عكس ذلك تماماً إلا واحد قد فقد عقله وحياءه وبلغ من ذلك مدًى لا يقبل علاجًا ولا بُرْءاً ؟ وبالمناسبة فهو هنا يردّد ما قاله المدعوّ « أبا موسى الحريرى » كما سلف الإيماء إليه .

---

(١) انظر ص ١٣٠ ـ ١٣١ ، ١٨٢ ، ٢٧٨ على سبيل المثال .

وسوف أسوق هذه النصوص التى فقد المبشِّر الحقود المهتاج رُشْدَه فزعم بشأنها المزاعم . ونبدأ بالشعر المنسوب إلى ورقة ، ولا يهمنا أكان هذا الشعر صحيحًا أم لا ، فمنهجى على طول هذه الدراسة هو التسليم للمؤلف الحقود بما يعتمد عليه من روايات حتى لو كان لى رأى آخر فى وثاقتها ، وذلك حتى أبين للقارئ أن كلامه ، مع المسامحة المطلقة من جانبنا ، هو كلام لا قيمة له لأنه ، كما قلت مرارا ، لا يخرج من عقله بل من مخرج آخر . وها هى ذى الآيات التى أوردها لورقة:

حتى خديجة تدعونى لأخبرها ... وما لها بخَفِىِّ الغيب من خَبَرِ

جاءت لتسألنى عنه لأخبرها ... أمرا أراه سيأتى الناس من أخر

وخبَّرتْنى بأمر قد سمعت به ... فيما مضى من قديم الدهر والعُصُرِ(١)

فما الذى فى هذه الأبيات الثلاثة مما يمكن أن يتعلق به أى إنسان يفهم الكلام بعقله لا بشىء آخر فى القول بأنه دليل لا يقبل الشك على أن ورقة وخديجة قد « تعاضدا على إنجاز التجربة التى موضوعها النجيد / النجيب » ؟ أهذا غاية ما عند أعداء محمد والإسلام ؟ أهذا

---

(١) ص ١٨٢ .

هو الكلام الذى تُنْشَأ له مؤسسات لنشره فى ورقٍ فاخر وإخراجٍ فخم رغم أن أحدا فى العادة لا يشتريه ؟ لقد رأيت بنفسى فى معرض الكتاب أولاداً استأجرتهم إحدى دور النشر للصراخ بأعلى صوت كالمجنون الذى يعارك نفسه : « بُصّ ! شُفْ ! كُتُبُ فلان المصادرة ! بصّ ! شف ! كتب فلان المصادرة ! » ، ولم أر أحداً والله قد تعطّف والتفت إلى ما يقوله هؤلاء المساكين !

وبالنسبة للبوصيرى فقد نقل المبشر الملتاثُ العقل أبياتاً نسبها مؤلف « السيرة الحلبية » إلى ذلك الشاعر مسمّيا إياه بـ «صاحب الهمزية» ، وهى تتحدث عن الأسلوب الذى لجأت إليه السيدة خديجة رضى الله عنها للتثبت من أن ما يراه الرسول عليه السلام ويسمعه ملاك لا شيطان ، فتبين لها أنه ملاك لا يمكن أن يأتى إلا بالخير . ووردت فى كلام البوصيرى كلمة « الكيمياء » ، فعضّ عليها مبشرنا الأمين جدا بأنيابه الزرقاء يريد أن يوهم القراء بأنها تشهد بصحة ما قاله من أنها رضوان الله عليها كانت تقوم بتجاربها على محمد كى تخلق منه نبيا [1] . أفليس يُجْرِى العلماءُ فى معاملهم ، ضمن ما يُجْرُون ، «تجارب كيميائية» ؟ إذن فالبوصيرى عندما يذكر

---

(١) انظر ص ١٣٠ .

الكيمياء إنما يقصد هذه « التجربة » التى خاضتها أُولَى أمهات المؤمنين وخرجت منها بنبى حسب نظرية ذلك المتفلحس . أرأيتم ذكاء وأمانة كهذه الأمانة وذلك الذكاء ؟ لقد نظم البوصيرى الذى كان يذوب حبًّا فى سيدنا رسول الله همزيته فى نحو أربعمائة وخمسين بيتا جعل فيها النبىَّ عليه السلام سماءً لا تطاولها أية سماء أخرى ولا يستطيع أحد غيره من الأنبياء أن يَرْقَى رقيّه ، وأكد أن كل نور فى الكون إنما هو مستمَدّ من نوره ، كما أفاض فى الحديث عن معجزاته ، وصوّر جهاده العظيم فى سبيل الإسلام ، وردّ على مفتريات أهل الكتاب وهاجم معتقداتهم الكافرة ، وتشَفَّعَ به عليه السلام كى يغفر الله له ذنوبه يوم القيامة ... إلخ ، فكيف يمكن أن يخطر فى ذهن أى إنسان أن الرجل يمكن أن يغمز النبى كما زعم المبشّر الرقيع؟ صدق رسولنا الأكرم : « إذا لم تَسْتَحِ فاصنع ما شئت » . وبالمناسبة فأنا متأكد أن ذلك الحاقد لا يعرف أن البوصيرى هو المراد بلقب « صاحب الهمزية » . وهذه هى الأبيات المذكورة :

وأتاه فى بيتها جبرئيل ... ولذى اللب فى الأمور ارتياءُ
فأماطت عنها الخمار لتدرى ... أهو الوحى أم هو الإغماء
فاختفى عند كشفها الرأسَ جبـ ... ـريلُ فما عاد أو أعيد الغطاء
فاستبانت خديجة أنه الكنـ ... ـز الذى حاولته والكيمياءُ

والواقع أنه لو كان البوصيرى قد قال بدلا من « الكيمياء » : الفيزياء أو الأحياء ، أو حتى اللوبياء أو الفاصولياء أو الدُّبّاء (والدُّباء هو القرع ، وكان سيدنا النبى عليه السلام يحبه) لكان كاتبنا الهمام قد صاح بنفس الرقاعة قائلا : انظروا ! ها هو ذا الشاعر قد أشار إلى أن خديجة كانت تُعِدّ الطبخة لصُنْع نبى ، بالضبط كما تُطْبَخ اللوبياء والفاصولياء ! ذلك أن أمثاله لا يقف أمامهم شىء ، فهم لا يبالون بالمنطق ولا بأمانة العلم ! إن حَقَدة المستشرقين والمبشرين لا يعرفون الحياء ، إذ ليس عندهم (كما تقول اللغة الدارجة) « شىء من الأحمر » ! وعلى أية حال فليس المراد بلفظة « الكيمياء » هنا هو العلم المعروف الآن ، بل « الإكسير » حسبما كان العرب يستعملونها قديما . ومعنى « حاولتْه » : « رامتْه » . وعلى هذا فشرح البيت هو أن خديجة قد تيقنت بالطريقة المذكورة أن زوجها هو النبى المنتظر وليس أحدا غيره ، وهذا هو الكنز الروحى الذى يحرص أى إنسان نبيل على أن يحصل عليه . ولا علاقة لشىء من هذا ، كما ترى ، بالسخف الذى زعمه المبشر الجهول . ترى لو كانت خديجة هى التى صنعت محمدا ، أكانت بحاجة إلى التحقق من صدق كونه هو النبى المنتظر ؟ بطبيعة الحال كلا ، إذ كيف

يستوى صدقٌ وتزييفٌ مصطنَعَ ؟

ثم إن للهمزية عدة شروح ، ومنها شرح الإمام ابن حجر ، الذى لم يترك فيها شيئا لا من جهة اللغة ولا من جهة النحو والصرف ولا من جهة التاريخ ولا من جهة الدين ... إلخ إلاَّ وأشبعه شرحًا وتحليلا وتوضيحا . فكيف فات ابن حجر ما زعمه المبشر الأفّاك على البوصيرى رحمه الله ، وابن حجر إمام كبير من أئمة الدين ؟ كذلك توجد على شرح ابن حجر حاشية للشيخ محمد الحفنى مُفْعَمة بالملاحظات على ما قال ابن حجر فى شرحه لا تكاد تترك منه شيئًا يستوجب التعليق إلا علقت عليه . ومع ذلك فعبثًا نبحث فيها عن شىء من هذا الادعاء الوقح الذى بَهَتَ به صاحبُنا المخادعُ الإمامَ البوصيرى . إن من المضحك المبكى أن نشغل أنفسنا بتفنيد هذا السخف التافه ، لكن ماذا نفعل وفى البشر حمقى وجهلاء يمكن أن يدخل عليهم هذا الهراء فيرددوه كالببغاوات إذا لم يجدوا من يتصدى له ويعرّيه ؟

أما د. طه فلم ينقل المؤلف من كلامه إلا سطراً تقريبًا ثم قطع النقل فجأة وأخذ يزعق ويصيح بما معناه : « انظروا . هذا هو عميد

الأدب العربى يقول إن خديجة هى التى صنعت محمدا وجعلت منه نبيا . لقد قُضِى الأمر وحُسِمت المسألة ولم يعد هناك من شك فى أن محمدا نبى مزيف . وهل بعد كلام العميد من كلام ؟ ». وهو فى هذا يشبه إنسانا مفلولا مغلولا من رجل وامرأة شريفين تصادف أن تقابلا بمرأى منه فى الطريق مجرد تقابل ثم مضى كل منهما لطِيَّته دون أن ينظر كل منهما للآخر ، فأخذ صاحبنا يصرخ بكل قواه : «انظروا يا ناس إلى هذين المجرمين ! ها هما ذان يمارسان الفاحشة علنا على قارعة الطريق ، فانزلوا وشاهدوهما بأعينكم وهما متلبسان بجريمتهما» . وينزل الناس فلا يَرَوْنَ زنا بل لا يجدون أحدا بالمرة ، فيسألون عن سرّ إزعاجه إياهم دون سبب فلا يجدون منه إلا سحنة وقاحًا تغرى بضرب الحذاء ، لكنهم يعفّون عن أن ينجسّوا أحذيتهم بضربه . والآن مع كلام طه حسين . يقول الرجل : « لقد أحبّت خديجة هذا الفتى منذ كان صبيا وجعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع أن ترقبه وتتبع نموه واكتماله » (١) . فأين الكلام هنا عن التجربة التى مارستها خديجة بحق محمد ؟

---

(١) ص ١٣١ .

إن الدكتور طه يقول إنها « جعلت ترعاه من بعيد وترقب من أمره ما تستطيع أن ترقبه » ، وهو ما لا معنى له إلا أنها لم تكن تلتقى به أو تتحدث معه بل كانت تتبع أخباره من بعيد . والحمد لله أن هذا الكلام لم يُكْتَبْ فى أيامنا هذه ، وإلا لقال المبشِّر المحترق إن المقصود أنها كانت تدير تجربتها بـ« الريموت كنترول : Remote Control » ! ومرة أخرى ترانى أيها القارئ العزيز أقف عند كلام د. طه حسين دون أن أتساءل عن المصدر الذى استقاه منه ولا عن مدى أهلية هذا المصدر للثقة ، بل أخذته مأخذ التسليم . ولقد رأيتَ بنفسك مدى الفجور الذى بلغه ادعاء المؤلف بشأن هذا النص أيضاً .

ونفس الشيء يفعله هذا الأفاك البَجِح بالسطور التالية التى يقول فيها الرجل الشريف د. عبد الحليم محمود : « وعاش معها (أى الرسول مع خديجة) زهاء خمس وعشرين سنة دون أن يجمع معها زوجة أخرى ، وكانت أحب الناس إليه وأقربهم إلى نفسه صلى الله عليه وسلم لإيمانها العميق ووفائها النادر وحرصها التام على ما يُرْضِى الله تعالى ويُرْضِى رسوله صلى الله عليه وسلم »[1] . إن

(١) ص ٢٧٨ .

النص، كما هو واضحٌ بيِّنٌ حتى للأعمى ، يؤكد إيمانها العميق وحرصها التام على مرضاة الله ورسوله ، أما عُلُوج التبشير المستخفون فى طيات الظلام فيقولون إن فى ثنايا كلام شيخ الأزهر « تلميحا ولو من بعيد إلى دور الهِنْدَوْز فى إنجاز أروع التجارب التى حَظِىَ بحدوثها فى تضاعيفه القرنُ السابع الميلادى »(١) . هل تجدون أيها القراء الكرام فرقا بين صاحب هذا الكلام والمفلول المغلول الذى ادّعى على الرجل والمرأة الشريفين ما ادّعى ؟ أفلو كان الإمام الأكبر قد قصد شيئا من هذا أكان المبشّر الوضيع يتطاول على شخصه الكريم كما سبق أن ذكرنا ؟

ولا يكتفى الفلحاس بهذا بل يتطالّ إلى تفسير القرآن الكريم . ألا إن هذا لعجيب ! إن عند الإنجليز عبارة يضربون بها المثل فى استحالة وقوع الأمر فيقولون : « Pigs might fly » ، أى من الممكن جدا أن تطير الخنازير . لكن قد يحدث فعلا أن تطير الخنازير كما هو الحال عند حدوث دوامة هوائية عنيفة مثلا ، أما أن يفسّر مبشِّرٌ محترقٌ جهولٌ القرآن فهذا هو العجيب الغريب حقا . ومع ذلك

---

(١) ص ٢٧٨ .

هيّا بنا نسمع ما يقول .

لقد فسّر قوله تعالى فى سورة « الفرقان » عن الكافرين المكذبين برسالة محمد من أهل مكة : ﴿ وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ... ؟ ﴾ بأن المراد أن خديجة كانت تطعمه وتغنيه عن السعى وراء المعاش (فهذا فى رأيه معنى قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ ») ، وأنهم كانوا مدركين لهدفه من وراء غشيان الأسواق ، ألا وهو الاختلاط بأهل الأديان المختلفة والسماع منهم ومناقشتهم كى يكتسب العلم والثقافة على أيديهم (وهذا فى رأيه معنى قولهم : « ما له يمشى فى الأسواق ؟ ») . ثم أخذ يتعالم ويشمخ بأنفه على المفسرين متهما إياهم بالجهل والبلادة العقلية والنقش من بعضهم البعض ومؤكدا أن تفسيره للآية هو وحده التفسير الذى يصحّ (١) . فبالله عليك أيها القارئ الكريم (واعذرنى أنى أرهقتك معى بكثرة مناداتى لك واستغاثتى بك لتشهد على هذا الجهل المبين) ، بالله عليك هل يمكن أن يكون معنى قول الكفار للنبى عليه الصلاة والسلام : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى

(١) ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢ .

فى الأسـواق ... ؟﴾ هو هذا القىء الذى يتـحـفنا به ذلك المبـشـر الخسـيس ؟ لو كـان ما يقـوله صـحيـحًا لقـد كـان ينبـغى أن يجىء اعتراضـهـم على النحو التالى : « ما لهـذا الرسول يأكل طعام خديجة ولا يسعى على رزقه بنفسه ؟ » . لقـد كـانوا ، فى الواقع ، ينكرون عليه الأكل مطلقا ، إذ كانوا يستغربون أن يكون الرسول الذى يتصل بالسماء بشرا من البشر ، فهذا معنى استنكارهم أنه يأكل كما يأكل الناس ، ويمشى فى الأسواق كـما يمشون . لقـد كـانوا يريدونه مَلَكًا من الملائكة أو أن ينزل معه على الأقل واحد منهم فَيَرَوْهُ عيانا بيانا ، أو يدعُوَ الله فيرسل له كنزاً من الذهب والفضـة والجواهر الثمـينة لا ينفـد ... إلخ كـما جاء عقب هذه الآية . فاعتراضـهـم إذن اعتـراض على بشريته وخضوعه مثل سائر البشر لقوانين الكون فى كسب المال بحيث لا يستطيع أن يحوز شيئا منه إلا بالاشتغال مثلهم بحرفة من الحرف .

والدليل على صحة هذا التفسير قوله تعالى فى نفس السورة بعد عدة سطور : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم لَيأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ ، إلا إذا طلع علينا « بسلامته » فقال إن كل الرسل كـانوا يعيشون على أموال زوجاتهـم ، وكـانوا يترددون جـميعا

على سوق عكاظ ومجنة وذى المجاز ليستمعوا إلى ما يقوله القساوسة والأحبار . ويدور فى هذا المدار قوله عز شأنه فى آخر سورة « الرعد » : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية ﴾ ، فهذه الآية أيضًا تردّ على استنكار من أنكر على الرسول أن يتزوج ويكون له أولاد كسائر البشر . وعلى أية حال فإن التردّد على الأسواق الذى يدّعى مؤلف الكتّاب أن محمدا كان يمارسه بغية التزود من الثقافات الدينية المختلفة على يد من يرتادها من الأحبار والرهبان ، والذى يقول إن خديجة هى التى أمرته به ، إنما كان قبل البعثة حسبما قال بعظمة لسانه الذى يستحق أن يُقْطَع من جذوره ويُرْمَى للكلاب ، أما الآية الكريمة التى بين أيدينا فتنتمى بطبيعة الحال إلى ما بعد البعثة بزمن غير قصير لأن سورة « الفرقان » ليست من سور الوحى الأول . أى أن ما يقوله هو هراء فى الهواء !

وعجيبٌ جِدٌّ عجيب أن يتطاول مثله إلى تفسير القرآن، وهذا هو أسلوبه ومستواه فى لغة القرآن ! وأعجب منه أن يأخذ فى الهمز واللمز والتلميح إلى أن القرآن هو من عند رسول الله، الذى حرص على وصفه فى هذا السياق بالتفوق فى معراج الفصاحة، وإن أرجعها فى ذات الوقت إلى تنشئته فى بنى سعد وَحْدَها نافيًا أن يكون لله دخل

فى ذلك على أى نحو . وسرّ حرصه على الإشادة ببلاغة رسول الله عليه السلام ليس حبّه له ، فهو يمقته مقتا شنيعا لم أر أحداً غيره يمقته إياه ، بل رَغْبَتَه فى القول بأن القرآن إذا كان فصيحا فذلك راجع إلى فصاحة محمد [١] . والحق إن مثل هذه المسألة لهى أرقى من أن يتطاول إلى الحديث فيها أى أحمق جهول . ولن نطيل القول فى هذا الموضوع بل نكتفى بإحالة القارئ الكريم إلى الدراسة التى صدرت لصاحب هذه السطور حديثًا فى نحو ستمائة صفحة بعنوان « القرآن والحديث ـ مقارنة أسلوبية »[٢]، ولسوف يجد ما أثبتته الإحصاءات والمقارنات الأسلوبية بين القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فى الألفاظ والصيغ والتراكيب والعبارات والصُّوَر والقَسَم وأسماء الأعلام والبنية القصصية وغير ذلك من أن الأسلوبين مختلفان تمام الاختلاف مما يقطع بأن القرآن لا يمكن أن يكون من عند محمد . وهذه الدراسة ، رغم ذلك ، ليست إلا أول الغيث فى هذا المجال ، والأمل معقود على من يأتون بعد هذا فيتوسعون فى دراسة ذلك الموضوع مستعينين بالحاسوب والرياضيات الحديثة . أما

(١) ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٢) نشر مكتبة زهراء الشرق .

كلام المصاطب الذى يردده الرقعاء الجهلاء فمكانه تحت الحذاء.

وبعد ، فقد أن الأوان أن نُجْلِس مبشّرنا الفلحاس على الخازوق . لقد زعم العبقرى الهمام أن الذين صنعوا محمدا هم ورقة وخديجة وعداس وأبو بكر . لكننا جميعا نعرف أن هؤلاء كلهم قد آمنوا به صلى الله عليه وسلم وأحبّوه وأجلّوه وأسكنوه داخل حبات عيونهم . أم تراه سيقول إنه سقاهم « حاجة أصفرة » وضحك عليهم وأدخلهم فى دينه دون أن يشعروا ؟ إن الإنسان ليتساءل : لم يا تُرَى كل هذا الحقد على سيد الأنبياء ودينه ، وبخاصه فى عصرنا هذا ، عصر العلم الذى كرّمه دين محمد تكريماً لا ضريب له فى أى دين أو مذهب فلسفى أو تربوى آخر ؟ إن من خرج فى طلب العلم فهو (حسبما يقول الرسول الكريم) فى سبيل الله حتى يرجع ، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن مداد العلماء لَيُوزَن بدماء الشهداء ، وإن فضل العالِم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب ، وإن من اجتهد فى مسألة من المسائل فأخطأ فله أجر ... إلخ ، إلخ إن كان لذلك من آخر . فما الذى فى هذا يا إلهى (وما هذا إلا نقطة واحدة من بحرٍ زخّار موّار) مما يمكن أن يبعث على الكفر بمحمد أو التنقص منه ومن

دينه النبيل ؟ صدق الله العظيم الكريم : ﴿ الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات . والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ﴾ (١) . فأصحاب العقول والقلوب والضمائر الطيبة الطاهرة لا يملكون إلا أن يحبوا محمدا ودين محمد ، أما الأنجاس الأرجاس المناكيد فإن نفوسهم ، بما فُطِرَتْ عليه من خُبْثٍ ونتن والتواء ، لا تستطيع أن تجيب داعي الله ، إذ الشّبيه إنما ينجذب إلى شبيهه ، ودين محمد طيب فلا يميل إليه إلا الطيبون الطاهرون . ولكلٍّ وجهة هو مولّيها .

والله إنها لعجيبة الدهر أن يجرؤ المبشرون على مهاجمة دين محمد ، وهو الذى جاء لتحرير العقل البشرى من لوثة الشرك من ثنوية وتثليث وأصنام وأوثان ، وإعتاقه من أوزار الأساطير التى تدور حول وهم الخطيئة الأولى ، وذلك لكى يستقبل الناس الحياة ويستمتعوا بطيباتها بضمير لا تؤوده أثقال الآثام الوثنية المغرمة بالدم البشرى وسفكه . لكنى أعود فأقول : ما العجيب فى هذا ؟ إن من الكائنات من لا تجد لذتها إلا فى تشمم الجيف وأكلها ، وتنفر أشد النفور من الروائح الطيبة والطعام الهنىء المرىء !

---

(١) النور / ٢٦ .

مقتطفات من الكتاب

مقتطفات من الكتاب

- إن مرجعيةً دينيةً ذاتَ مقام محمود ورتبة عالية ودرجة رفيعة لدى خديجة أشارت عليها بأن هذا الفتى هو « المأمول » وأنه حَتْمٌ لازم أن تُباعِله[1] لكى تبدأ معه تجربة التأهيل والإعداد والتصنيع والتحضير والصقل والتهيئة الضرورية كيما ينتقل من فتى قرشى هاشمى إلى القادم المنتظر (ص ٣٨) .

* * *

- تبيّن لنا أن سيدة قريش جَفَّ ريقها وحفيت قدماها وداخت السبع دوخات كما يقول التعبير الدارج حتى وافق « إمام الأولين والآخرين » على خِطْبتها فنكاحها (ص٣٩) .

* * *

- إن هذا الحشد القوىّ والتجييش المضاعَف والتعبئة المخططة من قِبَل سيدة النساء إزاء « البشير النذير » ، وهذا الحصار المحكم له حتى رفع الراية البيضاء وسلّم لها بطلبها ورضى أخيراً نكاحها إياه ... ، إن

(١) أى تتزوجه .

لذلك كله عِلّةً مفردة لا توأم لها ، وهى أنه « القادم » الذى طال انتظاره (ص٤١) .

* * *

- أما من جانب « الخاشع » فلا شك أن القارئ لم يَفُتْه أنه أصبح مثلا فاذًا فى المطاوعة والملاينة : «اجلس على فخذى» ، يجلس. «تعال فى حجرى» ، يأتى . «ادخل بين قميصى وجسدى» ، يدخل . وهذا له دلالة لمن لديه ذرة من زكانة أو مُسْكَة من فطانة على أن «الخاضع» غدا ينظر إلى زوجته نظرة الابن إلى أمه الحبيبة الذى[1] يرى سعادته فى بِرّها ومهاودتها وأن ما تأمر به واجب النفاذ العاجل لأن الوالدة الحنون لا تشير إلا بكل ما هو فى صالحه ولفائدته حتى ولو لم يعرف كُنْه الطلب ولا مغزى الأمر (ص ٩٣ _ ٩٤) .

* * *

- كان الأسى المرير على فقد خديجة أمر بديهى[2] لأنها الأم الرءوم والوالدة الحنون والزوجة الحبيبة التى آزرته وعضدته وثبتته والتى

---

(١) الصواب : « أمه الحبيبة التى يرى سعادته فى برّها » .

(٢) الصواب « أمرا بديهيا » .

لولاها(١) لما أكمل التجربة(٢) حتى نهايتها ، وهى التى فتحت له خزائنها يغرف منها كيفما يشاء(٣) والتى وضعت بين يديه كل ما تملك ورفعت عن كاهله هَمّ الرزق وخوف الخلق وفرّغته كيما يجتاز المراحل مرحلة وراء أخرى ، وهى التى أتاحت له التّماسّ بالقَسّ ورقة وغيره مثل عداس وبحيرا وقضاء الليالى الطوال مع ابن نوفل فى المدارسة والمذاكرة والمحاورة ، أو تقرأ له ، وهو الأُمّىّ بشهادة القرآن الكريم ، الصحف التى قام القَسّ بنقلها إلى اللسان العربى ، وهى التى هيأت له الاختلاط بأصحاب كافة الملل والنحل والعقائد والأديان الذين اكتظت بهم بكّة التى يؤمونها (يتوجهون إليها ويقصدونها)

(١) الصواب : « لولا هى » .

(٢) الملاحظ أن مؤلف الكتاب يكرر كلمة « التجربة » كثيرا . ومن غير المستبعد ، وهو المبشّر النصرانى حسبما هو راجح عندى إلى أبعد حدّ ، أن يكون قد استعملها بمدلولها لديهم ، إذ التجربة فى الأناجيل هى ، فى الغالب ، غواية الشيطان (انظر «قاموس الكتاب المقدس» / تحرير د. بطرس عبد الملك و د. طمسن وإبراهيم مطر / دار الثقافة / ط١٠ / ١٩٩٥م / مادة « جرّب ») . أفتراه يريد أن يقول إن نبوة محمد هى وسوسة شيطانية شريرة ؟

(٥) انظر إلى عبارة « يغرف منها كيف يشاء » وإيحاءاتها التى تريد أن توقع فى رُوع القارئ أنه عليه الصلاة والسلام كان متكالبا على الدنيا مسعوراً بمطالبها وأن خديجة كانت تعمل على إرضاء هذه النزعة المرضيّة عنده ، أستغفر الله !

لأغراض متباينة : الموعظة ، الدعوة ، التجارة ، الجاسوسية ، الحج إلى البيت الحرام الذى اعتقدوا أنه إرث إبراهيم أبى الأنبياء وأكبر البطاركة .

ولولا التفرغ الدائم أحد عطايا أم هند لما انفسحت له الفرص الثمينة ، إذ لا شك أن الخلطة بهم شكلت جزءا من الخطة المرسومة لما انضوت عليه « الخطة » من تمرس واستماع وحفظ وحِوارٍ ومدارسة وتخزين معلومات . فمن المعروف أن الأُمّىّ يتمتع بذاكرة خارقة. منذ فجر التجربة المعجبة أدركت السيدة اللبيبة ببصيرتها النافذة وعقلها الراجح وأفقها الوسيع أن احترافه التجارة بما يتطلبه من سفر وعقد صفقات وسَوْم ومقابلات سيستنزف وقته وجهده بالكامل ولا يدع له فسحة من الوقت ، فى حين أن التجربة تحتم ضرورة التفرغ لها بالكامل وطلاق كل ما يشغله عنها طلاقا بائنا بينونة كبرى .

كذلك فإن « التجربة » ، علاوة على ما ذكرنا ، لها جانب شديد الأهمية بالغ الخطر ، وهو الانعزال عن الناس لفترة معينة فى كل عام للتحنف والخلوة والتحنث والتبرُّر[1] ، وهذه كلها تمثل

---

(١) كلمة « التبرُّر » من المصطلحات النصرانية التى لا يخطئها الانتباه !

الجانب الروحى وإعداد النفس والجسم معا لتلقّى الرؤى والهواتف واستقبال الكائنات العلوية غير المنظورة للناس العاديين والحديث معها. وتراثات أهل الكتاب ومرويات غيرهم من سائر الملل والديانات الأخرى مليئة بأمور مماثلة أو حتى متشابهة .

وهنا نذكّر بقيام ورقة بالتدريس وبترجمة صحائف من الكتاب المقدس وقراءة الطاهرة لها ، فهى تقرأ وتكتب ، واستيعابها ثم تلقينها وتحفيظه إياها . بقى التطبيق العملى الذى مارسته بحذق ومهارة يعز مثلهما ، ونفّذه الابن البار المتفانى فى المحبة والمهاودة . نفذه بصورة عريّة عن الضُّروب . ولا غرو ، فهو عبقرى لا يَفْرِى فَرِيَّه أحد . ومنذ ظهوره المبروك لم تر له جزيرة العرب نظيراً وحتى[1] مقاربا (ص٩٥ ـ ٩٦) .

* * *

ـ والعجب كله أن الإخباريين يضيفون إلى صفات التيمية بنت أبى قحافة الذكاء والفطانة ، فكيف لم تدرك أن خديجة بالنسبة لمحمد ليست زوجا وأما فحسب ، بل هى صاحبة الفضل وهِنْدَوْز التجربة

---

(١) الصواب : « أو حتى مقاربا » .

التى خلّدت اسمه فى الأولين والآخرين ودفعت تُبّعه (المصدقين به) أن يقرنوا باسم رب العزة ذى الجلال والإكرام، تقدست آلاؤه، اسمه الشريف. فكيف يرضى إذن بأى مِساسٍ بها حتى ولو من أَصْبَى زوجاته وأحلاهن وأملحهن وأبهاهن؟ (ص ١٠٠).

* * *

- ولم يقتصر اعتناق بنى أسد (للنصرانية) على الرجال فقط بل تعداهم إلى النِّسُون. وهذا ملحظ شديد الأهمية، فهناك ثالث أو ثالثة أبناء عم الطاهرة الذين يتنصرون، وهى قتيلة أو أم قتال، وقيل فاطمة بنت نوفل. أى أخت ورقة. وهى واحدة من السَمَرَتّين اللتين تعرضتا لأبى محمد، عبد الله بن عبد المطلب، وهو فى طريقه مع أبيه كيما ينكح آمنة بنت وهب الزهرية بأن يفاخذ كُلاً منهما بعد أن رأتا بين عينيه نور النبوة، وله مائة من الإبل (ص١١٧).

* * *

- هذه مجموعة من المصادر والمراجع التى تؤكد الثراء العريض والغنى الوسيع والأموال الطائلة التى احتازتها الطاهرة والتى رصدتها لإنجاح التجربة. فهى فرّغت «الطاهر» تمامًا وأَخْلَت ذهنه البتّة من

هم الرزق كيما لا يشغله شاغل من أى نوع يعوق نجاح التجربة التى رشحته لها ليتحقق حلمها بأن يغدو القادم المنتظر(١) . وقد قرأنا فيما سبق ما قاله « المنصور بالرعب قرابة شهر » أنه بعد زواجه منها أكل الخمير ولبس الحرير . بيدَ أنه ما هى العمالة التى مارسها إبان فترة التفرغ أو حقبة التأسيس ، وهى مدة متوارية فى الظل فى كل كتبُ السيرة لا نجد عنها خبراً ؟ فبعد أن نكحته خديجة وذكرت المؤلفاتُ وقائعَ الزواج قفزت مباشرة إلى حادث الغار . إذن ما هى أعماله أو ممارساته أو أنشطته إبانها ؟ لقد تفرغ أو بمعنى أوضح فرَّغته الطاهرة للتجربة ، ففى النهار يمشى فى الأسواق يقابل ويحادث ويحاور أصحاب مختلف العقائد والملل والنحل الذين ماجت آنذاك بهم قرية القداسة من يهود ونصارى وأحناف وصابئة ومجوس وغنوصية ... إلخ، ولا يفوته حضور الأسواق التى تُنْصَب أو تقام فى مواعيد معروفة مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز ، ويسمع خطبهم ومحاوراتهم وأشعارهم فيها (ص١٢٠) .

* * *

---

(١) أى أن المسألة كلها مجرد صناعة بشرية ، فخديجة (بنص كلام المؤلف) هى التى رشحته للتجربة ، وهى التى كانت تحلم بأن يكون هو القادم المنتظر . ولا دخل للسماء مطلقا فى هذا الأمر على أى نحو من الأنحاء !

- كيف يستسيغ العقل أن قتيلة أو أم قتال أو فاطمة بنت نوفل أخت ورقة إحدى الـمَرَتَين اللتين تعرضتا لأبى محمد ليعتليهما[١] أو ليعتلى كُلاً منهما على حدة ، نقول : كيف يستسيغ أن هذه الـمَرَة، وهى بنت عم الطاهرة ، تعرف القراءة والكتابة فى حين أن خديجة ، وهى أعلى منها مرتبة وأرفع مقامًا وأسنى درجة فى كل ناحية ، تجهل القراءة والكتابة ؟ كذلك الـمَرَة الأخرى فاطمة الخثعمية التى طلبت من عبد الله ابن عبد المطلب أن يفاخذها [١]، وأغرته بجمالها الفائق وحسنها الباهر ومُحَيَّاها الطلق وملاحتها الظاهرة حتى إن فتيان قريش تعودوا على التحلق حولها والاجتماع بها ليتملّوْا من بهائها ووضاءتها ، وأغوته كذلك بنفحه مائة من الأبل إن ركب عليها[١] وجامعها ، هذه الامرأة كانت تقرأ الكتب (ص١٢٤) .

* * *

- الخلاصة أن الحلقة الكتابية الخارجية التى ربطت خديجةُ حَبْلَها بها وتشكلت من القَسّ ورقة والراهب عداس والراهب

---

(١) لاحظ الألفاظ التى يستعملها الكاتب من مثل « اعتلاها . فاخذَها . ركبها » بدلا من الألفاظ الموجودة فى كتب السيرة والتاريخ !

سرجيوس ومقدّمها الراهب بحيرا أو نسطور أو سركيس قد وصلت إلى درجة رفيعة من العلم بالكتاب ، وليس من بينها رجل عادى يقال عنه إنه يعرف قشوراً من العلم الكتابى . حتى عداس المملوك لابنى ربيعة ارتقى إلى رتبة «راهب» . وهذا أمر له دلالته ، وهو أن الطاهرة شدّتْها صلة وثيقة وعلاقة حميمة وآصرة متينة برؤوس أهل الكتاب فى مكة والحجاز . وإذ إنها بَرْزَة فالراجح بل المؤكد أنها جالستهم ونشبت بينها وبينهم محاورات قِوَامها العلم الكتابى مما يزيد ثقافتها الدينية عمقا . بيد أن ثقافتها الكتابية تلك لم ترتفع إلى درجة علمهم ، ولكن قدرها لا يستهان به على الإطلاق ، وإلا لما نجحت فى إنجاز التجربة الفذة (ص١٤٣) .

* * *

- سيدة نساء الدنيا خديجة عاشت مع «المجتهد» عشرة أعوام بعد واقعة غار حراء لأنه مكث فى مكة بعدها ثلاثة عشر عامًا ، وروحها الطاهرة انتقلت إلى بارئها راضيةً مَرْضيّة قبل نزوحه (هجرته) إلى يثرب (المدينة) بثلاثة أعوام ، ومع ذلك فهى لم تَرْوِ عنه حديثاً واحداً. إن الصحاح والمساند والجوامع والسنن والموطأ والمعاجم والأمالى والطبقات والمناقب والشمائل والفوائد ... إلخ لا يوجد فيها حديث

واحد لخديجة ، ولا يوجد مُسْنَدٌ باسم خديجة مع وجود مسانيد لعدد كبير من الصحابة حتى صغارهم سواء فى السن أو المقام .

وفى المقابل نجد أن عائشة بنت أبى بكر تزوجها «الذى سيفه على عاتقه» وهى بنت ست سنوات ، ودخل بها وهى بنت تسع سنوات ، وكان هو فى الثانية والخمسين من عمره المبرور ، وظلت معه تسع سنوات ، إذ إنها بلغت الثامنة عشر(١) عندما انتقل إلى الرفيق الأعلى راضيًا مَرْضِيًا ، ومع ذلك روت عنه ألفين ومائتين وعشرة أحاديث . وهذا أقل عدد ذكره جهابذة علم الحديث . وهنا ينتصب سؤال على قدر من الأهمية : لماذا ؟ ما العلة ؟ ما السبب ؟ وقفتُ كثيراً عند هذا السؤال ودار فى ذهنى عدد من الردود أو الإجابات ، ولم أستطع أن أهتدى إلى إجابة وافية ، بيد أن أقربها إلى الصحة أو إلى المعقولية أو إلى المنطق هو موقف كل من الزوجين بالنسبة لـ « الموقن » :

ابنة أبى بكر تلميذة وتابعة ومتلقية ، أما سيدة نساء الدنيا فهى الأم الرءوم وهِنْدَوْز التجربة التى خرج منها « صاحب المغنم » من

---

(١) الصواب : « الثامنة عشرة » .

الفتى الهاشمى الذى طال التشوق إليه والذى رد الاعتبار إلى العرب وصار لهم حامل كتاب مثل موسى بالنسبة لليهود وعيسى عند النصارى . ولعل هذا يفسر أمرا آخر أثار انتباهى وأنا أقرأ سيرته العظيمة الفائحة بالرائحة الطيبة كما المسك عشرات المرات فى المصادر والمراجع، أن ابنة أبى بكر طفقت تناديه بصفة مستمرة : « يا رسول الله » أما سيدة نسوان قريش فلمّا[١] توجّه إليه خطاباً تقول : « يا أبا القاسم » أو « يا محمد » ، وكذا عندما تتحدث إليه إلا فيما ندر ، والاستثناء لا يقاس عليه . وهى التى توجهه وتطلب إليه وتشير عليه[٢] ، بينما ابنة أبى بكر فعلى العكس هى التى تلبى وتطيع وتمتثل وتأتمر بأمره وتنفّذ وتسمع ... إلخ . وهو الفرق الواضح الذى لا يحتاج إلى زكانة لمعرفته أو حتى إلى لمسه باليد بين خطاب الهندوز واستجابة التلميذة (ص١٥٤) .

* * *

(١) الصواب : « فعندما ... » .

(٢) يعنى أنها الأستاذة ، وهو التلميذ ، وأن نبوته إنما هى من صُنْعها ، فلا وحى ولا يحزنون ! ولهذا السبب فإنها لم تكن تناديه بـ « يا رسول الله » لأنها كانت « تعرف الفُولة وقشرتها » ، أما عائشة فمسكينة ، إذ لم تكن من «الإنتلچنسيا » ، ومن ثم فقد « بلعت الطُّعْم » وانطلت عليها الحيلة . وهذا أمر طبيعى جدا ، إذ لم يكن أبوها سوى « كومبارس » صغير فى فلم الأستاذة المخرجة !

- ظل القَسّ ورقة يؤدى دوره فى التجربة حتى تُوُفِّى . وهنا حزن عليه « الأسوة الحسنة محمد » حزنا بليغا وأسًى عميقا وأسفا شديدا حتى إنه هَمّ مرارا بأن يتردّى من رؤوس شواهق أَجْبُل مكة ، وهو أمر بالغ الدلالة شفّ المعنى غنى بالإيحاءات ، خاصة وأن دواوين السيرة المحمدية التى هى أطيب ريحاً من زعفران قد وضعت بين أيدينا مُعْطًى فى منتهى الخطورة هو أن وفاة القس تزامنت مع انقطاع الوحى أو فتوره ... وذلك يدلنا على المكانة الرفيعة التى احتلها اليعسوب فى عقل وقلب « صاحب النعلين »[1] ، إذ إن من صفاته العظيمة شدة الوفاء لمن عرفهم . كيف لا وقد جاء ليتمم مكارم الأخلاق ومِنْ نعوته «صاحب الخُلُق العظيم» ؟ والدور الذى لعبه القس فى حياته لو قام به فى حياة شخص آخر لكان له كل عرفان ، فكيف بالمثل الأعلى فى الوفاء ؟ وهو ورقة بن نوفل بن أسد القرشى وابن عم خديجة الذى شجع محمدا ، ولعله أثر فيه فى السنوات الأولى من مبعثه . هذه المعلومة التى أوردتها الموسوعة ملمح يشف عن فطانة

---

(١) النعلين اللتين نُهينهما إن قلنا إن المبشر المفلوك مؤلف الكتاب يستحق أن يُضْرَب بهما ، لأنهما أطهر من أن يمسّهما جِلْدُ هذا النجس اللعين !

بالغة الخطر من أن ورقة شجع «المنصور بالرعب شهراً أو قريبًا من شهر» وأثّر فيه خلال السنوات الأولى ما هى إلا ما أكدناه أنه يعسوب التجربة التى قادتها أم هند (ص ١٩٤ ـ ١٩٦) .

* * *

ـ إن المفكر أو المثقف أو الباحث المستقيم الخلق لا يكيل بكيلين ولا يزن بميزانين ولا يقيس بمقياسين ، فعندما يقف أمام معجزة فإما أن يرفضها ويصرّح بلامعقوليتها أو يسلّم بها . أما أن يقبل معجزة واضحة الإعجاز ثم يأتى لأخرى أقرب منها قبولا وأدنى تصديقا ثم يرفضها أو يتجاهلها ويطوشها ، فهذا هو التذبذب المقيت الذى تمجه الأخلاق وتأباه قواعد البحث وألف باء الموضوعية . ونحمد الله أنْ عَصَمَنَا منه كله ، فقد رَضِينا بكلا النوعين : ما حمله القرآن العظيم، وما ورد بكتب السنة المشرفة والسيرة المحمدية ، وولَجْنا بوابة التصديق لا من بوابة المعقولية ومدخل المنطقية ولكن من طريق اتفاق المعجزات مع المستوى الحضارى والثقافى والمعرفى والعلمى والإدراكى ومطابقتها لخصائص مجتمعهم وبيئتهم ووسطهم وتفكيرهم . من هذه المناظير تصبح صحيحة بل ونصدّقهم ونفهم علة تصديقهم إياها أو قبولها ممن يتفوه بها . لماذا ؟ لأننا قسناها بمقاييسهم ووزنّاها

بموازينهم وكِلْناها بمكاييلهم ونظرنا إليها بعيونهم وعايرناها بمعاييرهم[١] (ص٢٦٠) .

* * *

- هناك زمانان للمعجزة يتعين التفرقة بينهما : الأول هو زمن حدوثها وتلقّيها من قِبَل من عاينها أو شهدها أو حضرها ، ونسميه الزمن المعاصر لها . والآخر هو زمن من سمع بها أو قرأ عنها ، ونسميه الزمن اللاحق لها . ولكل منهما أحكامه على الحدث ، وهما بالضرورة مختلفان . وكلما تباعدت المسافة بينهما تباين النظر إليه (= الحدث) وبالتالى تقديره .

فإذا جاء الزمن اللاحق بعد الزمن المعاصر (= لحدث المعجزة) بمائة سنة فإنه مقارب له إذ لا زالت[٢] أصداؤه تتردد . وربما يوجد من الأشخاص من قابل فرداً أو أكثر من الذين شاهدوه أو عاينوه ، ومن ثم يتلقاه منهم وهو لا زال فيه نبض وإثارة[٣] من حياة وبقايا من

---

(١) أما بمعاييره هو فليست إلا أكاذيب ردّدها الرواةُ عن جهل أو خبث طوية .

(٢) الصواب : « ما زالت » .

(٣) الصواب : « أثارة » بفتح الهمزة لا بكسرها .

الانفعال به . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالظروف الاجتماعية والثقافية والمعرفية والفكرية ... إلخ تحمل بعض قسمات وملامح الزمن المعاصر لحدث المعجزة .

أما إذا تباعدت المسافة بين الزمنين ألف سنة مثلا فالأمر يختلف تماماً . الحدث أصبح ذكرى بعيدة . فإن تسيدت فى الزمن اللاحق الثقافة الشفاهية ولم يعرف التدوين وجانب الكتابة ، فإن صورة الحدث تغدو شاحبة وباهتة . لا نقول إنها منبتة الصلة بينها وبين الصورة الأصلية للحدث ، إنما تشبهها من بعيد . وعندما تتغلب فى الزمن اللاحق الثقافة الكتابية وسبقه تدوين الحدث ، فإن تم عَقِبَه بفترة معقولة فإن هيئة الحدث تحتفظ إلى حد كبير بملامحها وقسماتها مما يتيح الفرصة لتقييمها تقييما قد لا يجىء دقيقا تماماً بل قريب[١] من الدقة .

ونوع الثقافة هنا هو الذى حدد الفارق بين الصورتين . كذلك تباعد المسافة بين الزمنين ، بغض النظر عن الثقافة المهيمنة ، يخلق هُوّة من الصعب وربما من المستحيل تجاوزها أو تخطيها بين أحوال

---

(١) الصواب : « بل قريبا من الدقة » .

مجتمع كل زمن من كافة الأقطار والنواحى والجوانب . وهذا يساعد كثيرا على تسرب دواعى التوهين وبواعث التهزيل ودوافع الإضعاف للحدث بالنسبة للمعجزات التى لها خصوصية اعتقادية ، وهو ما يفسر لنا قول بعض الباحثين : هذا أمر تعجز عقولنا عن إدراكه ، إذ كيف تستطيع أفهامنا القاصرة استيعابه ؟ فنَكِل أمره إلى الله . وهذا ما قرأناه لبعضهم وهو يفسر آية انشقاق القمر .

أما إذا تعلق بحدث ليس له مسحة اعتقادية بَحْت مثل اقتحام الجيوش العربية فى غزوها الاستيطانى لأنهار البلاد المفتوحة أو تناول أبى سليمان خالد بن الوليد ، ذلك الذى فعل الأفاعيل فى حروب الردة وغيرها من الحروب الاستعمارية الاستيطانية(١) ، السمّ دون أن يصاب بأى أذى ، فهنا لا بأس أن ينتقل أولئك الباحثون إلى مرحلة الشك والريبة فالإنكار .

إن التفرقة بين الزمنين فى غاية الأهمية . لماذا ؟ لأن الخلط

---

(١) أيمكن أن يخطر فى بال مسلم أن يسمى حروب الردة « حروبا استعمارية استيطانية » ؟ إن هذا كلام لا يخرج إلا من قلب مبشر مفعم بالحقد على هذا الدين الذى قضى على سيادة دينه فى المنطقة إلى الأبد .

بينهما هو الذى يفرز البلبلة والتخليط اللذين وقع فيهما الغالبية العظمى من الباحثين بتجاهلها تماماً والإعراض عنها أو رفضها دون سند واضح إلا العقلانية الزائفة . ونعيد لفت النظر إلى أن ذلك تم بخصوص المعجزات التى حملتها الأحاديث الشريفة والسيرة المطهرة التى هى غذاء الروح والوجدان .

أما المعجزات التى جاءت بها الآيات البينات من الذكر الحكيم فهى معصومة من أدنى ذرة تشكيك أو ارتياب بجزاء عقوبة الردة[١] . وظلت هذه الحماية سارية المفعول منذ قرأها « الميسّر » على أتباعه حتى الآن ، أى ما يقرب من أربعة عشر قرنا وربع القرن (ص٢٦١ ـ ٢٦٣) .

* * *

ـ من الأسباب القوية التى حالت دون زواج محمد بزوجة أخرى على الطاهرة هو أن «الثقافة الدينية» التى هيمنت على بنى أسد ، رَهْط أم هند ، تحرّم الجمع بين بعلتين ، كما أنها تحرم الطلاق لأن

---

(١) يريد أن يقول إن المعجزات الواردة فى القرآن الكريم مجرد كلام فارغ لا يستحق التصديق ، لكن الخوف من حدّ الردة قد تكفّل بإسكات من لا يقتنع !

ما ربطه الرب لا يفكه العبد (المربوب / المخلوق) . هذا الملحظ البالغ الأهمية والثَّرُّ بالدلالات غاب عن فطانة كل من زبَرَ (نسخ) سطورا فى السيرة المحمدية المعطار سواء من القدامى والمحدثين من العرب والأعاجم والفرنجة !!!(١) (ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩) .

* * *

ـ إن طلاقة لسان « الظُّفور» أمرٌ مُجْمَعٌ عليه ومعترَفٌ به حتى من خصومه الألداء ، وهى من الأمور البدائه : فهو من قريش ، ولهجة قبيلته خلاصة لهجات الجزيرة وزُبْدَتها . وسبق أن أوضحنا الأسانيد فيما أورده الثعالبى فى «المضاف والمنسوب» بشأن قريش . كما أنه استرضع فى بنى سعد ، ومن ثم سلم من اللُّكنة والحُبْسة والعجمة ، ثم مشى فى الأسواق والتقى بالأعاريب والعرب الذين يحضرون موسم الحج والأسواق = (مجنة وذا المجاز) واستمع إلى الخطباء الفصحاء والشعراء الـمُفْلِقين والمنافرين ذربى الألسنة فى عكاظ ، وجماعهم أصحاب ذلاقة وإبانة وبلاغة ، فازداد بل تضاعف

---

(١) انظر إلى المؤلف الذى لا يخجل أن يكون مجرد بوق يردّد نفس الكلام الموجود فى كتاب « قَسّ ونبى » منذ أكثر من عشرين عاما ، ومع ذلك يذهب فى الغرور والتعاظم إلى هذا المدى البعيد من السماجة والحقارة !

محصوله المعجمى ومخزونه اللغوى ورصيده البيانى . دعك مما ذهب إليه أبو عثمان بحر[١] الجاحظ (مع تقديرنا البالغ له) فى « البيان والتبيين» من أن مرجع ذلك إلى عصمةٍ وتأييدٍ وتوفيقٍ من قوى غيبية[٢] ، وتابعَه من المحدثين مصطفى صادق الرافعى فى مصنفه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» . فنحن نميل إلى الأسباب الموضوعية التى تُلْمَس باليد قبل أن تُرَى بالبصر أو تُدْرَك بالبصيرة . فالوسط الاجتماعى والموقع الجغرافى (قرية القداسة وما حف بها من أسواق) والاختلاط بحملة اللهجات المتباينة والنشأة الأولى فى البادية حيث النقاء من السوقيّة والهُجْنة والحُوشِيّة ، مجموعها ينأى بـ «الكريم» عن العِىّ والغتمة والفهفهة[٣] والرتم ... إلخ . إن هذه الأسباب الموضوعية أقرب منالاً وأدنى قبولاً وأحكم منطقًا . ولماذا نترك الجنب ونلتمس المفارق ، وندع اللزيق ونبحث عن القاصى ، ونَذَر القارّ

---

(١) الصواب : « عمرو بن بحر » .

(٢) الجاحظ لم يقل ولا يمكن أن يقول إن رسول الله كان مؤيدا من «قوى غيبية» . هذه رطانة المبشرين ومن يشايعهم من سفلة الشيوعيين فى بلاد المسلمين ، أما الجاحظ فيقول إن « الله » هو الذى كان يحفّ الرسول صلى الله عليه وسلم بالعصمة والتأييد .

(٣) الصواب : « الفَهَاهة » .

ونطلب البادى، وننصرف عن المقيم وننقّب عن الظاعن ؟ أليس هذا المسلك يتسم بالبعد عن الحكمة والنأى عن المنطق والمجافاة للفطرة السليمة والإعراض عن المنهج القويم؟ إذن الأسباب الموضوعية دون غيرها (إذ لا لزوم لهذا الغير[١]) هى التى جعلت من «أبى الأرامل» أعظم الفصحاء وسيد البلغاء ومقدم المبينين وزعيم اللّسِنين وقائد الذّرِبين . « عن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه قال رجل : يا رسول الله ، ما أفصحك ! ما رأيت الذى هو أعرب منك ! قال : حَقٌ لى ، وإنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين » . وليختزن القارئ ما جاء بهذا الحديث الشريف ، وخاصة فى عَجُزه أو مؤخره الذى ربط حسب تعبيره بين فصاحته هو وبين مجىء القرآن المجيد بلسان عربى مبين . وفى حديث آخر مرفوع إليه رداً على سؤال مماثل أجاب : كيف لا يغدو كذلك ، وهو مِنْ قريش واسترضع فى بادية بنى سعد؟ إن أحداً لا يجرؤ على أن ينكر « أنه أفصح الناس لساناً وأوضحهم بياناً وأصحُّهم معانى ، لا يظهر فيه هجنة التكلف ولا يتخلله فيهقة التعسف » .

---

(١) « الغير » هنا هو الله سبحانه وتعالى .

أما عباس العقاد فهو لم ينزلق إلى ما ذهب إليه معاصره وغريمه الرافعى فى رد علل فصاحة « قطب الأقطاب » إلى قُوَى ماورائية وغيبية ولامنظورة[١] بل آب بها إلى أسباب موضوعية ، «فمحمد العربى القرشى الناشئ فى بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة لم يكن فى كلامه غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة...» .

ومن الغريب أن « سيد الكائنات » أرجع بلاغته إلى الأسباب الموضوعية : أنه من قريش ، وقضى طفولته فى البادية . وهو منهج علمى، ومع ذلك يأتى من بعده من يحاول أَسْطَرَةَ سيرته[٢] فيزعم أن ذلاقة اللسان عنده ربانية ، والفصاحة هبة إلهية ، ونصاعة البيان عطية سماوية . يتساوى فى ذلك القدامى (الجاحظ مثلا) والمحدثون (الرافعى على سبيل المثال) . وبداهةً لم يتوقف الأمر عند حلاوة منطق «صاحب الخلق العظيم» بل تعداه إلى غالب مقاطع سيرته المعطاءة التى هى أطيب ريحا من الأُلُوّة مع الكافور والزعفران . وهم

---

(١) المقصود هو الله عز وجلّ دون مماحكات لفظية سخيفة .

(٢) أى تحويلها إلى أساطير وخرافات .

إذ يفعلون هذا الفعل الغلطان ويسلكون هذا المسلك الفَسِيد وينتهجون هذا المنهج الخطىء يتوهمون أنهم به يُعْلُون من قدره ويرفعون مقامه ويحمدون مكانته ، مع أن العكس هو الصحيح ، والنقيض هو الصواب. فهو أولا ليس فى حاجة إلى من يفعله له ، وآخراً فإن الكتابة الموضوعية هى وحدها التى تقنع من هو فى حاجة إلى إقناع بعظمته وسموه وعبقريته وفذوذته ... إلخ ، بعكس العلل الغيبية ، إذ يردّ المعاند ويجيب اللجوج ويقول الخصيم : وما هو دوره إذا وهبته السماء الفصاحة ونفحته البلاغة ومنحته ذرابة اللسان ؟ أما إذا قيل لذلك اللدود المعارض المناوئ : « إن تلك جماعها من كسبه الشخصى وبجهده الذاتى وإرادته الفولاذية ودأبه الذى لا يكل ... إلخ» طأطأ رأسه له إجلالاً وأحنى قامته له تعظيماً .

سبق لنا أن دعونا الكتبة المحدثين : كُفُّوا عن هذا المنهج الفَطِير الذى يضر ولا ينفع ، فإن فى السيرة المحمدية الزكية ما يغنيكم عن اللجوء إلى الماورائيات ولكن « لقد أسمعت لو ناديت... » . ولا يخفى السبب الكامن خلف الاستعانة بها ، فهذا لا يحتاج إلى بذل جهد أو مكابدة عناء أو تحمل مشقة بل يكفى بضع عبارات إنشائية وجمل خطابية وفقرات بيانية وخطب منبرية ، بخلاف البحث

الموضوعى ، فهو يستنفر الحَفْر فى المصنفات والتنقير فى المؤلفات والتدقيق فى الكتب مع استعمال طرائق الاستقراء والاستدلالات والتحليل والسَّبْر والاختبار والمقارنة والشك فى بعض الأحايين . وسبيل هذا كله شاق ومجهد ومتعب ... إلخ . ولِمَ كل هذا وفى الغيبيات ميدانٌ متسعٌ دون بذل عرقٍ ونطاقٌ فسيحٌ بلا إرهاق ومجالٌ عريضٌ بغير نَصَب ؟(١)

ثم نأتى إلى السؤال المهم الذى تعين علينا تأخيره إلى خاتمة هذه الفقرة التى خصصناها لفصاحة « أحمد » : لأية علة تحتّم على سيدة نسون قريش الالتفات إليها بل والتشبث منها فيه والتى فى نظرنا شكلت باعثًا حثيثا لاختياره ؟ نحن نرجح أن القارئ اللقن الفطن لا يغيب عن ذكائه الاهتداء إلى الجواب الصحيح . إن المرشح كيما يغدو « القادم المنتظر » لا بد أن يمسك بيده كتاباً يعلنه على أهل مكة : « هاؤم اقرأوا كتابيه » ، مثلما قالها موسى لليهود ، وابن مريم للنصارى . والعرب المخاطَبون (بفتح الطاء) به أهل لسن وفصاحة

---

(١) لقد فَلَقَنا « نيافته » بالحديث عن الموضوعية والمنهج العلمى ، مع أن كلامه كلّه لا علاقة له بالمنطق ولا بالعقل بل يخرج من مخرج آخر !

وبلاغة ليس لديهم من سمات الحضارة غيرها . هذا مع التجاوز الكبير في عدها من شارات الحضارة ، فهم عراة من العلوم والآداب والفلسفة . ومن ثم فإن الكتاب الذى يُطْرَح عليهم يجب أن يجيء مثلاً أعلى لهذه السمة اليتيمة المفردة التي يمتلكونها ، وإلا فلا يؤمنون به ولا بمن قدمه إليهم بل إنهم سوف يستهزئون به ، إذ يصير في مقدورهم أن يأتوا بمثله أو حتى أبعاض منه .

إن دروس أو معارف أو معلومات الليالى الطويلة والذى[1] ستختزنها الذاكرة الحديدية ، ذاكرة الشاب الأمى العبقرى العَرِىّ عن الضُّروب عديم النظير ، يتعين بطريق الحتم واللزوم أن تُتْلَى على أهل مكة والحجاز وغيرهما ، وبتعبير الذكر المحكم : « الناس » ، بلسان عربى بلغ القمة فى الفصاحة والذروة فى اللسن والذؤابة فى البلاغة كيما يأتى (= الكتاب) بمفعوله الأكيد دون ذرة من شائبة أو حبة من كدارة (ص٢٨٤ ـ ٢٨٧) .

* * *

ـ والسيدة خديجة (رض) فى صلتها برسول الله تستحق دراسة

---

(١) الصواب : « التى » ، مع حذف الواو التى قبلها .

أوسع وتفصيلا أكثر . وفى المكانة الاجتماعية فهى التاجرة الموسرة ذات الحسب والنسب . ورغم هيمنة النظرة الذكورية آنذاك على مجتمع مكة فقد استطاعت بصفاتها الشخصية أن تحتل فيها مكانة رفيعة . وهو واحد من ناشئة قريش فقير يحترف رعى الغنم مرة، والعمالة التجارية لدى الغير تارة أخرى . ومن ناحية المال فهى صاحبة القافلة التى لها فيها ما يساوى شطر ما لسائر أساطين قريش . وهو أجير لديها . ونذكّر هنا بترجية عبد مناف أو أبى طالب عندها أن تستأجره فى سفرة الصيف إلى الشام وتعطيه ضعف ما تنفح غيره من العُسَفاء . وفى جانب النسب أم هند من فرع قوى مليء : بنى أسد فى يقين نفر من البُحّاث[1] أنه فاق الهواشم منزلة ، ولو أن هؤلاء ارتفعوا إلى الذؤابة العليا لا فى قريش وحدها بل فى جزيرة العرب جميعها بعد أن تحول « المستقيم» إلى القادم المأمول والمنتظَر المرتقب.

---

(١) البُحّاث الرقعاء رقاعة المبشّر صاحب هذا الكلام ! وبالمناسبة فقد جاء فى كتاب « قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية » ، وهو من الكتب التى عليها اسم «خليل عبد الكريم» ، أن أجداد الرسول حتى عبد المطلب كانوا حكاما على مكة ، أى أن بنى أسد كانوا من رعاياهم وأتباعهم . فما هذه النغمة الجديدة هنا ؟

ولا بأس ، تدليلاً وإثباتاً للفوارق التى طرحناها حتى الآن (هناك أخرى سوف تتواتر) ، نعيد ما أسلفنا أنه ما صدّق أن الطاهرة تقبل أن تباعله وأن الخبر إثر ما وصل مسامع عبد مناف[1] أو أبى طالب ركبه الفرح وعمه السرور وهيمن عليه الحبور . وفيما تقدم وضعنا أدلة الثبوت الموثّقة على ذلك فى حجر القارئ .

وهى ذات تجارب عميقة وخبرات مكينة ، وهى دروب حاذقة مَرَنَتْ على شتى الوجوه من العديد من الأمور: فهى صاحبة تجارة وسيعة ، وهو أجير . ولا يقارن ذو لب بين خبرة رب العمل والأجير . وهى تزوجت مرتين أنجبت فيهما أولاداً وبنات ، وهو لم يدخل دنيا . وهى تجيد القراءة والكتابة ، وقد طرحنا البراهين على ذلك ، وهو أمى لم يمسك قلما ولا ورقة ولم يطالع صحيفة . وهى ذات ثقافة دينية متميزة فى حين لم يُعْرَف عنه ذلك . وهى من فرع (= بنى أسد) مَرَقَ منه نفر ممن قرأوا الكتب وتبحروا فى العلم فى حين لم يُعْهَد فى

---

(١) ما هذا التخليط المخمور ؟ أين كان عبد مناف أوانذاك ؟ لقد كان يفصل بينه وبين النبى عليه السلام عدة آباء ، فهو والد هاشم والد عبد المطلب والد عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم . أى أنه كان قد مات منذ أجيال .

بنى هاشم من ذلك شيء[١] .

وأحاطت بسيدة نِسُون قريش خلقة من أهل الكتاب تقابلهم وتناقشهم وتدارسهم وتباحثهم ، وهو آثر العزلة وأحب الإنطواء[٢] ورغب فى الابتعاد لأن ظروف نشأته قست عليه وحرمته وظلمته .

وهى ، حسبما أبلغنا الإخباريون ، امرأةٌ بَرْزَةٌ تجالس الرجال مع عفة بالغة وطهارة كاملة ، وتحادثهم وتسامرهم وتسمع منهم ، وهو خجول كالعذراء المخدَّرة . وهى ذات حاشية وسيعة من الصواحب والصديقات يَحْضُرْنَ مجلسها ويتجاذبن معها أطراف الحَكْى وينقلن إليها أخبار قرية القداسة وما حولها وما وقع من الأطروفات والأحداث والأعجوبات ، وخلت مدونات سيرته الفائحة بريح المسك الأصهب من أسماء من خالَّه (= صادقه) فى ذَيَّاك الوقت سوى ما

---

(١) جاء فى كتاب « قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية » أن عبد المطلب كان ذا ثقافة دينية وسياسية وعسكرية واسعة عميقة ، بل جعله المؤلف يحيط بجميع النظريات السياسية فى عصره . ولا أدرى ما الذى جرى بعد ذلك حتى يقال عنه هنا وعن قومه جميعا إنهم لم يكونوا من العلم فى شيء ! ولله فى خلقه شؤون !

(٢) الصواب « الانطواء » بدون همزة تحت الألف التى فى أول الكلمة .

رواه عمار بن ياسر عن نفسه أنه خِدْنه . ومعلوم أن الاختلاط خاصة في ذَيّاك المجتمع يضاعف المعلومات وينمى المدارك ويزيد المعارف ويوسع الأفق ويعمق النظرة ويُحِدّ البصيرة ويصقل القريحة ... إلخ[١] (ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠) .

* * *

ـ هل دخول القادم المأمول والآتى المنتظَر التجربةَ ينزع عن الموضوع جانبه التيولوجى أو الغيبى أو السماوى إلى آخر هذه التوصيفات التى تعنى فى نهاية المطاف المُفَارِق أو المُبَايِن أو المُفَاصِل للفعل البشرى ؟ الدوجماطيقيون أو المتمسكون بالحروف أو الظاهرية (لا نعنى أصحاب مذهب الظاهر حصراً وتحديداً ، ولكن كل من يشهر فى الوجوه سلاح التفسير الظاهرى للنصوص) هم وحدهم الذى يذهبون إلى ذلك ، أما الواسعو الأفق والمستنيرون لا يرون فى ذلك تناقضا. ودليلنا على ذلك ما جاء فى القرآن الكريم نفسه : ﴿ وِلتُصْنَع على عينى ﴾ ، فالفعل مبنى للمجهول ، أى أن

(١) واضح طبعا ما يقصد الكاتب إلى قوله هنا من أن الرسول عليه السلام كان خاماً ساذجا غُفْلا ليس عنده أية ثقافة أو معرفة بالحياة !

الصانع غير معلوم ، بيد أن الصناعة تتم تحت رعاية ربه . وكيما يزداد المعنى وضوحًا نقرأ الآية المذكورة كاملة . فبعد قذف موسى فى التابوت ثم فى اليَمّ يأخذه آل فرعون ، وفى القصر الملكى ينشأ موسى ويشبّ ويترعرع وينهل من منابع حكمة كهان مصر القديمة ويتضلع من علومهم . وهذه هى الصناعة ، وهذا هو السر فى بناء فعلها للمجهول لأنه ربما يغدو من غير المناسب الكشف عن هنادزةِ وأساتذةِ ومعلمى موسى . المهم أن هذا التصنيع هو الذى أهل موسى لكى ينشئ الديانة الموسوية التى تدين بالكثير الذى لا يحصره أو يعده أو يحصيه إلا الله إلى مصر القديمة صاحبة أعظم حضارة عرفها التاريخ حتى الآن وصاحبة الفضل العميم على البشرية جمعاء فى العديد من الحكمة والفلسفة والآداب والعلوم والهندسة والطب والفلك ... إلخ .

المهم : الذى نقصده أن العلوم التى تلقاها موسى على أيدى كهان قدماء المصريين ومعلميه فى قصر فرعون أو البيت الكبير (برعو) كلها وسائر خطوات الصقل والصنْفَرة والإعداد والتأهيل والتحضير والتدريب والتمرين والتلميع ... إلخ والتى عبر عنها الذكر الحكيم بالصناعة : ﴿ وِلتُصْنَع على عينى ﴾ تمت تحت رعاية ربه . وهى ذات الخطوات التى حققتها الهندوز فى التجربة مع « المُخبِت »

بإشراف اليعسوب أيضًا ، وبذات القدر يمكن أو هى حقيقة الصناعة التى ورد ذكرها فى الآية المذكورة إنما تحت رعاية الرب وبتوفيقه[١] .

إن الذى حدث لموسى فى البيت الكبير (برعو ، قصر فرعون) على يد الكهنة والمعلمين والأساتذة والحكماء ... تكرر مع «المجيب» على يد الطاهرة والقس . وفى الحالتين وقعت التجربتان ، وهما مكلوءتان برعاية الرب وتحت بصره وبتوفيقه . ونحن لا نسوّى بين كهان وحكماء ومعلمى وأساتذة مصر القديمة بالطاهرة واليعسوب[٢] بل ولا نرى وجهًا للمقارنة بين الفريقين . ولعل هذا يظهر بمقارنة الديانة الموسوية بديانة الإسلام[٣] . بيد أن الذى جمع بينهما ودفعنا إلى قرْنِهما ببعض[٤] هو أن السماء دأبت على النظر إلى كل منهما والعناية بهما ورعايتهما حتى كُتِب لكلٍّ الفلج والظفر والفوز .

---

(١) واضح ما فى الكلام هنا من ركاكة واضطراب ، وتوجد أمثلة أخرى كثيرة على ذلك فى الكتاب . وهناك مواضع لم أجد مفرًا من التدخل فيها وإصلاح هذه الركاكة دون أن أشير إلى ذلك .

(٢) الصواب : « لا نسوّى بين كهان ... مصر القديمة وبين الطاهرة واليعسوب » .

(٣) واضح جدا ما يريد أن يقوله هذا النكروش ، ولا تعليق .

(٤) الصواب : « قرْن أحدهما بالآخر » مثلا .

وقد لا يلقى هذا الرأى قبولاً ، خاصة وأن كلمة « ولِتُصْنَع » هناك من يذهب إلى أنها بفتح التاء ، وهو رأى أعجف لأن الرب يرى ما يصنع موسى وغيره ممن خلق ، فإيرادها بالفتح عبث ، والذكر الحكيم منزه عنه وعن كافة المطاعن(١) ، وجمهور السلف والمفسرين مطبقون على أنها بالضم .

ولننقِّر قدر جهدنا ووسع طاقتنا فى كتب التفسير العوالى التى تلقتها أمة « لا إله إلا الله » بالتجلة والتقدير كيما نثبت أن ما ذهبنا إليه من إمكان بل ضرورة تصنيع النبى (أىّ نبى) بالطرق البشرية تحت رعاية الله له سنده وعليه برهانه وتقوم حجيته من آراء السلف الصالح.

إذا أفلحنا فى ذلك بالأدلة القواطع فلا يحق لأى شخص أن يعترض ، بل فرض واجب عليه أن يسلِّم حتى ولو استغرب الفكرة لأول مرة ، بل وحتى ولو صدمته لأنه لم يسمعها من قبل ... وما دام

---

(١) يا شيخ ، قل كلاما غير هذا ! وهل تركتَ شيئا فى النبوة المحمدية والقرآن الكريم دون أن تنتهكه وتدنِّسه بتشكيكاتك واستهزاءاتك حتى تجىء الآن وتقول إن «الذكر الحكيم» منزّه عن العبث وعن كافة المطاعن ؟ يا بجاحتك يا أخى !

موسى نشأ فى قصر فرعون وتحت بصر الأخير فلا بد أنه وفّر له كافة وسائل التربية الطيبة والتعليم العالى من كهنة وحكماء وعلماء ومدرسين . وهذا يبين للوهلة الأولى من قراءة توراة موسى وتعاليم كهنة مصر وحكمائها . ويخرج عن سياق بحثنا عقد مقارنة بينهما لإبراز أوجه المماثلة وجوانب المطابقة ونواحى المشاكلة رغم توافر المصادر بين أيدينا (ص٢٩١ ـ ٢٩٦) .

* * *

ـ هناك أمر آخر تعيّن على الهندوز أن تُقْدِم عليه ، إذ بدونه لا تنجح التجربة أو على الأقل يتأخر فلجها أو يصيب نتيجتَها المبتغاة قدرٌ من التلبيس وشىء من التخليط ، وهو تفريغ قلب « القرشى » من هَمّ الرزق تماماً وتفريده للتجربة وموجباتها أو التزاماتها ، إذ إن الجمع بينهما ضربٌ من المستحيل وتكليفٌ بما لا يطاق وأَمْرٌ بما لا يستطاع. وفى القرآن العظيم ﴿ ما جعل الله لرجلٍ من قلبين فى جوفه ﴾ ، وفى الإنجيل أنه من المستحيل أن يخدم عبدٌ سيدين فى ذات الوقت أو فى وقت واحد ، والعامة فى مصر تقول : « صاحب بالين كذاب » .

وهذا أمر بديهى ، فالتجارة التى امتهنها « المكّىّ » قبل أن تنكحه أم هند تستنزف وقت من يتعاطاها ولا تترك له فسحة لغيرها من الشؤون . من هنا قررت سيدة نِسُون قريش أن ينفرد للتجربة ويُولِيَها كل اهتمامه وينفق فيها وقته كله ، فأقالته من عمالته واضطلعت هى بمشغوليات التجارة ووضعت فى حجره أموالها يصرف منها كما شاء دون معقّب منها أو من غيرها ، وذلك بعد أغرقته بطوفان حبها وألبسته الحرير وأطعمته الخمير فصار لها عاشقا كما قال . وكيف لا يفعل وهى قد نقلته نقلة لم يحلم بها مجرد حلم من عسيفٍ يكدح من مكة إلى حباشة ومن قرية القداسة إلى الشام لقاء بَكْرٍ أو بَكْرَيْن إلى واحد من السادة الغطاريف الذين يلبسون أغلى الثياب وأرقّها ويتلذذون بأشهى الأطعمة وأحلى الأشربة ، ووكظته إلى التجربة ليرتع فيها على مهل ويمرح على ريث ... ولم يحدث ذلك خبط عشواء بل عن رسم وتخطيط ليُلْقِيَ « المفتاحُ » دبر أذنيه زمنَ المعاناة وسنوات الفقر ومرحلة الشظف ولا يفكر فيها أدنى تفكير (ص٣٠٤ ـ ٣٠٥) .

* * *

ـ ومن ناحية أخرى فقد ذاق الحرمان وكابد المسغبة وكواه الفقر فلا يسكّن رُوعَه من هذا الجانب ويهدّئ باله ويطمئن نفسه ويريح

خاطره سوى أن يوضع المال جميعه بين يديه . ومن ناحية ثالثة بهدف أن تُحْكِم قبضة رعايتها وتشد وثاق عنايتها له وتضاعف من لحظها إياه . وجُمّاع ذياك كله يؤدى إلى سهولة المطاوعة ويسر المهاودة وسلس الموافقة مما يوصل فى نهاية الأمر إلى نجاح التجربة .

... يبقى موقف « الأوّاه » . كيف يقبل أن زوجته هى التى تُهَيِّئ أو توفِّر مسكن الزوجية ؟ وكيف يوافق أن بَعْلَه هى التى تعمل فى حين يظل هو بلا عمل ، خاصة وأنه آنذاك فى مطلع شبابه وعز فحولته وقمة فتوته وذروة قوته ، ونحن نعلم عنه أنه يعتز بكرامته ومن رهط بنى هاشم الذى يأبى الضَّيْم وينفر من الذل ويتمسك بحبال العزة ؟ الذى ترجح أنه فى البداية عَصْلَجَ وامتنع واحتج ... إلخ ، ولكن الطاهرة بما لها من كَيَسٍ وفطانة ولباقة وتجربة فى معالجة البعول استطاعت أن تثنيه عن موقفه وتستل مدافعته وتُلِين قناته وتأخذ منه صك القبول وشارة الرضى وعلامة الوفاق . بداهةً هى لم تفاتحه بشأن التجربة مباشرة ، إنما أفهمته بطريقةٍ خبيثةٍ أن هناك ما هو خير من العمل والتجارة وأن عليه أن يثق فيها . وفعلا وثق فيها فربح ما هو أعظم من التجارة . ربح خلوداً على مدى الدهر .

... ولعل من دوافع إغراق سيدة نساء الدنيا لـ «آكل الشعير» فى بُلَهْنِيَة العيش وإلباسه الحرير وإطعامه الخمير وتسليمه مفاتيح خزائن ثروتها الطائلة هو ألا يمد عينيه إلى غيرها من النِّسْوَن أو الجوارى ، فهى تعرف عنه شمائله الرفيعة ومناقبه السامية وأخلاقه الحميدة ، ويتربع على رأسها العرفان بالجميل ، ومن ثم فيستحيل عليه أن يُقْدِم على مثل هذه الفعلة (ص٣٠٩ ـ ٣١٢) .

* * *

ـ « الشّكّار » عندما نكحته الطاهرة فى مقتبل شبابه وتمتع بالصفات الجسدية التى ألممنا بشطر منها وبشمائل باهرة ومناقب منيفة وخصائص حميدة منها طلاقة اللسان وقوة العقل وسلامة الفطرة ونفاذ البصيرة وسعة الأفق وحِدّة الذكاء وصلابة الشكيمة ومضاء العزيمة واستقامة الخلق وصدق القول وأداء الأمانة والوفاء بالعهد . ونكتفى بهذا لأننا لا نستطيع حصرها . وكاتب هذه السطور يؤمن أن أمة العرب عقمت عن إنجاب ضَرُوبٍ له . بيد أنه من جانب آخر فهو أمى لم يقرأ صحيفة ولم يكتب كلمة ولم يمسك قلماً ولم يَخُطّ حرفا ، وذلك بشهادة القرآن العظيم . إنما عَوّضَ الأمية بذاكرة

واعية وحافظة تسمع الجملة فتختزنها وتستوعبها لا تخرم منها لفظة مفردة . هذه الذاكرة العبقرية لعبت دوراً لا مثيل له فى الخطورة إبان التجربة ، فقد وَسِعَتْ جميع الدروس والمعلومات والمعارف التى طفقت تتلقاها فى جلسات المدارسة وحلقات التعليم وليالى المراجعة على يد الهندوز أو اليعسوب (ص٣١٥) .

* * *

ـ الذى حاز الثقافة الدينية آنذاك هم نفر من النخبة القرشية ، أما الآخرون ، وهم العامة الذين يَكِدّون فى سبيل لقمة عيش جَشِبٍ (= خشن) فلا يفكرون فيها مجرد تفكير ، إذ هى بالنسبة إليهم ترف لا يقدرون عليه . ونحن إذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة عقلانية مجردة لا بد أن نتساءل : أنى لفتى صغير خرج بالكاد من مرحلة الطفولة واشتغل برعى الغنم ثم لما شب قليلا عمل أجيراً تجارياً ببَكْرٍ من الإبل، أنى له أن يحوز ثقافة دينية أو ثقافة من أى نوع ؟ ونرجح أن السيدة خديجة تحققت بنفسها ، فقد دأبت على استقباله غب إيابه من سوق حباشة منفردا أو مع زميله فى العمل وتقديم الأطروفة التى خبأتها له أو لهما كما أسلفنا . وفى أثناء تناولها لا بد أنها تحادثت معه فعرفت خُلُوَّه من أى منزع ثقافى دينى .

وعند عودته من الشام إلى دارها يسبق ميسرَة ، الذى تخلف بالبضاعة مع القافلة فى مر الظهران جلست إليه[١] وحاورته فيما حدث وسألته عمن التقى فتأكد لها أن صفحته الثقافية الدينية بيضاء من غير سوء ، فضلا عن أنه لم يُعْرَف شيء من ذلك عنه ، وإلا لوصل إلى مسامع أم هند . ولقد رَضِيَتْ كل الرضا لأنه بهذه المثابة يغدو هو المطلوب تمامًا لأن حاويته أو وعاءه فارغ بالكلية من أى أخلاط عقائدية أو شوائب ، ومن ثم فهو الأصلح لأن يمتلئ بما تصبُّه فيه تحت إشراف اليعسوب الماهر المجرب[٢] (ص٣١٨) .

* * *

ـ المرحلة الأولى التى رأت هندوز التجربة أنها تناسب « راكب الجمل » وهو فى الحالة التى وصفناها ، هى الاختلاط بالناس ، وأَمَّتْ (قَصَدَتْ) أمرين :ـ

الأول : أن تكسر طوق العزلة التى تعوَّد عليها قبل أن تنكحه ،

(١) فى الجملة اضطراب شديد وركاكة مزعجة .

(٢) ما هذا الخبل العقلى ؟ كيف بالله تخاف عليه من الأخلاط العقائدية ، وفى ذات الوقت تدفعه إلى الأسواق (كما يزعم) كى يمتلئ منها ؟

فـ« القـادم المنتظر » من باب الحـتم واللزوم لا بد أن يعى أحـوال مجتمعه ويتعرف على الذين سوف يخاطبهم ويلمس بيديه عقلياتهم وهمومهم ومشاكلهم وآلامهم وآمالهم ويزداد علماً بطبقاتهم وطرائق تفكيرهم وآليات فهمهم كيما يجىء خطابه إياهم موائمًا . وهناك حديث شريف منسوب إليه نصح فيه تُبَّعَه أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم . وهذا الكلم الرائع ثمرة للخطوة المبدأية[١] التى قطعها وهو يَخِبّ ويَضَع فى مشوار التجربة .

الآخر : من بين من سوف يخالطهم أصحابُ شتى الملل والنحل والعقائد والأديان مثل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس الذين ماجت وازدحمت بهم مكة ، علاوة على سدنة وكهان الأصنام ... إلخ . إن محمداً كان فى هذه الفترة يختلف إلى الأسواق والمنتديات يستمع إلى أحبار اليهود وكهنة النصارى ما يبشر به كل منهم فى أمر دينه وما يعارضون به العرب فى شأن الأصنام . والتَّماسُّ بهم على قدر وفير من الأهمية ، إذ من البديهى أن «أعظم الكائنات» ناقَلَهم الحديث واستمع منهم معتقداتهم واستوضحهم إياها ، ورويداً رويداً حاورهم

(١) الصواب : « المبدئية » .

واستمع منهم معتقداتهم واستوضحهم إياها ، ورويداً رويداً حاورهم فيها ... إلخ ، الأمر الذى يرضى أصحابها لأن من بينهم نسبة كبيرة من الدعاة إليها ، والداعى لا يسره شىء قدر إنصات الناس له والتفاتهم إلى ما يدعو إليه والإقبال على ما يبشر به . ويومًا بعد يوم تنمو ثقافته الدينية ويزداد معجمه العقائدى ويتعمق فهمه لسائر الأديان وفروعها والنحل ومذاهبها والملل وانشقاقاتها [1](ص٣١٩) .

* * *

- الفصل الأول من كتاب التجربة المذهلة هو الاختلاط بأهل مكة بكافة طبقاتهم وأجناسهم وألوانهم وألسنتهم دون تفرقة بين مِلَلهم وعقائدهم وأديانهم والاستماع إلى سائر طروحاتهم حتى أساطيرهم ومخاريقهم وشعبذاتهم . بل نرجح أن أم هند أوصت بهذا الشّق ، بل إن تشديدها بلغ الغاية وأوفى على النهاية فى الإلحاح والإلحاف والتأكيد ليكسب ما نُطْلِق عليه حديثا

---

(١) من الواضح تماماً ما يرمى المؤلف إليه فى هذه الفقرة من أن الرسول عليه السلام قد تعلّم على أيدى أحبار اليهود ورهبان النصارى !

« موسوعة أو دائرة معارف دينية » للزومها له [١]، إذ كيف يُتَصَوَّر (بضم التاء[٢] بصيغة المبنى للمجهول) أن تعلنه لأهل بكّة «المأمول» الذى طال شوقهم إلى مجيئه وهو مَلِيطٌ من الفكر الدينى ، مَرْتٌ من الثقافة العقائدية ، قَفْرٌ من المعرفة بالملل والنحل والمذاهب ؟ فإذا حاجُّوه وخاصموه وجادلوه وحاوروه فكيف يردّ عليهم وجَعْبته خالية ، وكنانته فارغة ، ووعاؤه فاض ؟

وبداهةً اعتمدت على ذكاء « أول من تنشقّ عنه الأرض » وفطنته ، وبالأخص على ذاكرته الفاذّة فى فهم واستيعاب وتخزين كل ما يصل إلى سمعه الشريف لا تندّ عنه كلمة ولا تُفْلت منه لفظة ولا تفوت منه عبارة . ولك أن تحسب بدقةٍ مدى ما حصّله من معلومات ومعارف طوال أعوامه لأننا فى حلقة التحنث بالمغارة[٣] سوف نرى أنه

---

(١) والله إنى لأعجب من هذه الجرأة الوقحة فى زعم المزاعم واختلاق الدعاوى ! ترَى كيف عرف « نيافته » بأن خديجة قد أوصت بهذا الشقّ وبلغت الغاية فى التشديد عليه ؟ أتراه كان يحضر مجالسها معه عليه السلام ويرقب ويسمع كل شيء دون أن يدريا بوجوده لأنه كان يلبس « طاقية الاستخفاء » ؟

(٢) الصواب : « بضمّ الياء وفتح التاء » .

(٣) كتب السيرة والتاريخ تقول : « الغار » ، أما مبشّرنا الوقح فيقول : « المغارة » للإيحاء بمعانى اللصوصية والقتل وقطع الطريق كما فى « مغارة على بابا والأربعين حراميا » مثلا !

ينجز فى مدة محدودة فى السنة لا تزيد على أسابيع .

إذن هو ، كما أثبتنا ، تفرّغ للمشى فى الأسواق لا يشغله عنه شىء ولا يحول دونه مانع بعد أن ضمنت له أم هند العيش الرغيد . ومدوامته عليه فى كل يوّم صيفًا وشتاء لفتت أنظار المكاكوة (أهل بكّة) فصاحوا قائلين أو قالوا صائحين : « ما له يأكل الطعام ؟» (كنايةً عن توفير الطاهرة المعاشَ له وما يقض مضاجع الناس ويتعبهم ويشقيهم منالُه)، وبعد أن اطمأن نفسًا وارتاح بالاً وقرّ عينا ما له بعده(١) «يمشى فى الأسواق » ؟ فهم ذكروا الحالتين اللتين هو عليهما إبان هذا المقطع : «يأكل الطعام» الذى أمّنته له بَعْلُه خديجة البالغة الثراء، ثم «يمشى فى الأسواق» ، إذ لم يعرفوا له شغلة سواهما. وبه شهدت دواوين السيرة المنيفة التى هى أطيب من رائحة الأُلُوّة مع الكافور والزعفران .

إن العادة جرت على أنه لا يقال : « ما لكذا؟ » إلا بصدد أمر غير عادى مثل : ما لك مسرع ؟ أو ما له مسرور ؟ أو ما لها مريضة؟ وهو بعينه أتى فى الذكر الحكيم : ﴿ وقال الإنسان : ما لها ؟* يومئذ

(١) الصواب : « ما له بَعْدُ يمشى فى الأسواق ؟ » .

تُحَدِّث أخبارَها ﴾ . فالإنسان عندما أحسن أن الأرض زُلْزِلَتْ سأل : ما لها ؟ ما حكايتها ؟ كذلك القرشيون ، عندما لاحظوا أن «المعصوم من الناس» دأبَ ولسنوات متواترة يجول فى دروب مكة وفى أسواقها لا يكِلّ ولا يَمَلّ ، تساءلوا : « ما له ؟ وما حكايته ؟ » . لعطن تفكيرهم وضيق أفقهم وركاكة فهمهم وضحالة عقولهم وفهاهة ذكائهم لم ينقهوا أنه ، وهو يفعلها ، إنما يؤدى بمهارةٍ أحد الأدوار المهمة فى التجربة العظمى التى بموجبها يتأهل كيما يصبح الذى طالما تحدثت حامتهم (نخبتهم) عنه وعن قدومه وتقطعت أعناقهم تطلعا لمجيئه الميمون .

فى زمن التجربة دأب العرب على إقامة أسواق فى كافة بقاع جزيرتهم المباركة . والذى يتصل بدراستنا التى تنصبّ على منطقة الحجاز ، ومنها عكاظ ومجنة وذو المجاز ، وأشهرها هو الأول[١] . وعلاوة على البيع والشراء والمقايضة وسائر ضروب التجارة انتهز الشعراءُ الفرصة لنشر قصيدهم ، والدعاةُ من مختلف الأديان والملل والنحل للدعاية إلى عقائدهم ومنافرة من يخاصمهم والرد على

(١) لاحظ اضطراب العبارة ، وهذا من سمات أسلوب الكتاب البارزة .

مناوئيهم . أى أن الأسواق مجال انتعاش اقتصادى ورواج فكرى من جانبه الدينى . إذن فلا بد ألا تفوت هذه المناسبات الثرة بالأفكار «المصطفى» . والعقل يحتم أنه لا بد أن يؤمها من أول ساعة تبدأ فيها حتى تنفضّ لا يتخلف عنها يوماً ، ويدور عليها أينما أقيمت لا ليبيع ويشترى ويتاجر ويفاصل ، إذ لا حاجة له بها بعد أن دلّقت الهندوز الدروب مالها بين يديه (كما أخبرنا التيمى عتيق أو أبو بكر بن أبى قحافة) ليتمم طقسًا من الطقوس المهمة فى مجال التجربة ، وهو الاستماع لكل من يدعو إلى دين ومن يبشر بملة وينشر عقيدة ويذيع نِحْلة ويروِّج لمذهب ، ويتعمق أقوالهم ويختزن معلومها فى حافظته الواعية ويحاورهم ويجادلهم حينا ، ويستوضحهم ويستفهم منهم حيناً آخر . والمبشرون فى الأسواق ، كما فى كل زمان ومكان ، أطول باعاً وأشد تمكنًا وأرسخ قدمًا من أندادهم المحليين (إن صح التعبير) لأهمية مناسباتها وكثرة عدد شهودها وكثافة حضورها[١] .

ممن اعتنقوا المسيحية قبل ظهور الإسلام بكثيرٍ نصارى نجران

---

(١) لا أظن القارئ إلا قد تنبّه إلى مّا يرمى إليه الكلام ، وهو المقارنة بين المبَشّرين وندّهم المحلّىّ محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى مقارنة لصالح المبشرين كما هوواضح .

الذين سكنوا بلاد العرب وأرسلوا دعاتهم إلى الأسواق والمواسم التى كان يجتمع فيها العرب للتجارة وغيرها . وجاء عن أولئك الدعاة أنهم كانوا يقصّون على الناس حالات البعث والحساب والجنة والنار ويدعون إلى التنكر للدنيا وملذاتها وإلى النظر إلى الكون والاستفادة من تقلباته وأحداثه . إذن حتّمّ على هندوز التجربة أن تشير على «إمام الأولين والآخرين» بضرورة إلفها ووجوب ملازمتها وحتمية اللزوق بها مع استحضار الوعى الكامل لما يقال جميعه ، واليقظة التامة لكل خطبة ، والانتباه البالغ لأى محاوره أو منافرة أو مجادلة حتى لا تفوته شاردة ولا واردة ، ثم بَرْمَجَتَه جميعه فى الذاكرة المدهشة ليخرج وقت الحوجة إليه ويصير مدداً إبان الاقتضاء إليه وعونا ساعة العوزة له وسنداً عند طلبه[1] . ووجوه أخرى للفائدة أو إن شئت الدقة للفوائد : أن يصبح جماعها كنزاً ثميناً وبحراً زاخراً ومحصولاً وفيراً أغلى من

---

(١) هذه الصورة التى يصوّر بها ذلك المبشرُ الأثيمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن تخطر إلا فى ذهن مخبول أو معتوه ، إذ لا يزيد عليه السلام فيها عن أن يكون « آلة تسجيل » لا عقل لها ولا مشاعر لديها ، « آلة تسجيل » بزنبرك ! أهذا هو محمد يا أوغاد المبشرين ؟ محمد ، الذى دوّخكم طوال الأربعة عشر قرنا الماضية وطيرّ النوم من أجفانكم ؟ ألا تبًا لكم وسُحْقا ! ألم أقل من قبل إنهم يحاربون دين محمد عليه الصلاة والسلام بأسلوب الموسمات ؟

الجوهر والذهب عندما تحين بعد سنواتٍ معدودة ساعةُ الإملاء ووقت الكتابة وزمن التدوين[١] (ص٣٢١ - ٣٢٣) .

* * *

- فى ليالى مكة الطويلة ، وخاصة فى الشتاء والربيع ، تشمِّر أم هند عن ساعديها وتجلس إلى ابنها وزوجها «الأمين» تقرأ له على مهل وتطالع له بتؤدةٍ صفحاتٍ من تلك الأبعاض والإصحاحات وتشرحها له بقدر ما تتسع ثقافتها الدينية التى حصّلتها من المنبع والروافد الأخرى التى رفعنا الستار عنها فيما سلف وسنوردها فيما يأتى ، وتطلب منه أن يجدّ معها (يعنى : يحفظها كلها لا يترك منها شيئا)[٢] . وتستقبل هى استيضاحاته وتربط له ما قرأته عليه مع ما ينقله لها مما وعاه متعلقا بذات الموضوع وما سمعه بخصوصه ، كل هذا مع استمراره فى المشى فى الأسواق والسماع والمحاورة لأن هذه

---

(١) أى عندما تحين ساعة الوحى ، الذى يدعى المبشّر الرقيع أن مصدره هم أمثاله من المبشّرين المعاصرين للرسول صلوات الله وسلامه عليه .

(٢) لا أدرى كيف فات المبشر الرقيع أن يقول إنها كانت تمسك فى يدها خيزرانة وتضع بجوارها فلقة كما يفعل « سيدنا » فى الكتاب مع تلاميذه !

شعيرة أساسية قنواتها متباينة ودائمة الفيض .

وإذا أشكل عليها أمر أو التبس عليها شأن أو أعجزتها مسألة هرعت إلى اليعسوب ورقة تستوضحه ليفسر لها ما أبهم ، ويبين لها ما غمض ، ويشرح ما خفى . إذن ابن نوفل هو المرجعية التى توضع على أعتاب بابها التساؤلات والاستفهامات والاستفسارات والاستبيانات ... إلخ ، هو الذى ينهض بعبء الشروح والتفسيرات والكشوف والتأويلات... إلخ ، أى تتسع حلقة المذاكرة بانتقال خديجة و«أحمد» إلى بحر العلوم وكهف المعرفة (نعنى ورقة) بعد أن تقدم به العمر وأخذ بصره يخبو . وفى داره تأسست مدرسة من أميز مدارس العلم الدينى التى عرفها تاريخ القرون الوسطى والتى غفل عنها مؤرخو هذا النوع من المدارس . بيد أنه من الآن فصاعداً سيكفّرون عن خطئهم وينفحونها حقها من العناية والاهتمام(١) .

---

(١) فعلا يا أخى ، كيف فات المؤرخين المساكين أن يتركوا منهجهم العلمى ويأخذوا بمنهج مبشرنا الفلحاس : منهج البيضة والحجر ، وضرب الودع ووشوشة الذكر ، فيعرفوا أنه كانت هناك فى مكة مدرسة اسمها « المدرسة الورقية » تمنح الليسانس ، وكذلك الدپلومة ودرجتى الماچستير والدكتوراه لمن يريد أن يتابع دراسته العليا من نوابغ الطلاب كى يصبح فى نهاية المطاف مبشّرا فلحاسا كصاحبنا ؟

فى تلك المدرسة أعطى اليعسوبُ خلاصةَ علمه وحشاسة معارفه وزبدة تحصيله إلى «المعصوم» بحضور الطاهرة ، واستمعَ إلى ملاحظاته وتساؤلاته واستبياناته فشرحها وأوضحها ، وكشف الستار عن غوامضها ، وأزاح الغمة عن معضلاتها ، وسلط الأضواء الكواشف على خوافيها . وخديجة تنصت وتلاحظ وتشجع «بطل التجربة» على مزيد من التدقيق ومضاعفة التمحيص والإكثار من المراجعة ، وتدفعه إلى التعميق فى الحفر والانغماس فى التنقير والانهماك فى البحث ، لأنها بما قرأته قدر طاقتها ووُسْع مكنتها وحصّلته حسب جهدها أيقنت أن «القادم المأمول» من باب الحتم واللزوم يتوجب أن يجىء مخزونه من الثقافة الدينية وفيراً ، فهى لا شك قرأت ما ترجمه ابن عمها من البشارة أو الإنجيل فعرفت ما لقيه ابن مريم من رؤساء الكهنة والفريسيين من سفالات ورذالات[1] وتحديات وإحراجات ، ومن ثم نقهت أنه إذا لم يقف «صفوة البادى والقارّ» على أرض صلبة من المعارف الدينية فلن يصمد لمنازلات أحبار

---

(١) بالضبط مثل سفالات مبشرنا الرقيع ورذالاته ، أخزاه الله هو ومن يقفون وراءه ولعنهم لعنا كبيرا !

اليهود ومنافرات قساوسة النصارى فتنهار التجربة على رؤوس أصحابها هذا الثلاثي الباهر المبهر.

وقد صدق حدسها فقد وقف فيما بعد علماء بنى إسرائيل له بالمرصاد وسألوه عن أصحاب الكهف والرقيم وعن الروح ... إلخ ، وتحققت فراستها عندما جاء وفد نصارى نجران إليه فى يثرب فى عام الوفد وظلوا بضعة أيام ينازعونه ويحاورونه ويناقشونه وأثبت بجدارة منقطعة النظير أنه كفىء لهم . ولما أيقن عنادهم وتشبثهم بعقائدهم الفواسد طلب مباهلتهم فأصابهم الذعر وركبهم الخوف وشملهم الهلع فتراجعوا وخنسوا وتقهقروا . فلولا الثقافة الدينية التى حصلها فى ذلك الزمن المضىء لما استطاع أن يلقمهم حجراً ولما صار ندّاً لأحبار يهود الذين أكثروا من جداله فى يثرب بعد أن نزح إليها وعَدَنَ فيها .

ولعله بعد أن كتب له الفلج على هؤلاء وأولئك ترحّم على الهِنْدَوْز واليَعْسُوب ، فلولاهما لما تم له شىء منه . إن هذا الجانب الممتاز من حياة أم هند يوضح لنا لماذا سمى عام وفاتها بـ « عام الحزن » وظلت ذكراها حية نابضة فى عقله وقلبه ووجدانه ونفسه

حتى آخر نفس من حياته المباركة لأنها لم تكتف بإسداء الفضل المادى (وهو إعفاؤه من الجرى وراء لقمة العيش وإطعامه الخمير وإلباسه الحرير) بل أضافت إليه جميلا معنويا يبزّه ويفوقه (ص٣٣٠).

* * *

- تأثر محمد تأثرا عميقا إذن بما قرئ عليه بمعرفة الطاهرة من الإصحاحات والأبعاض التى ترجمها ورقة إلى اللغة العربية وما حصّله قبلها وهو يجوب الأسواق من قصص أنبياء بنى إسرائيل والرائين (جمع «راءٍ» ، من «رؤًى» : جمع «رُؤْيَا» بالألف) وما يسمعونه من أصوات مثل إشعيا وعاموس (الرائى : كان النبى قديماً يقال له «الرائى» لأن الله أعطاه أن يرى الحوادث مقدمًا قبل أن تحدث. وهذا ما قيل أيضًا فى إش ٣٠ / ١٠ : « إن الإسرائيليين المتمردين قالوا للرائين : لا تَرَوْا . ولم يَرَوْا شيئًا ») : «اسمعى أيتها السموات ، واصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم» . «اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم . أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة» . فهنا سمع إشعيا صوتًا اعتقد أنه كلام الرب فنقله بدوره إلى بنى إسرائيل . ومثله عاموس : « فقال إن الرب يزمجر من صهيون ، ويعطى صوته من أورشليم» . «اسمعوا هذا القول الذى تكلم به الرب عليكم يا بنى

إسرائيل على كل القبيلة التى أصعدتها من أرض مصر ... إلخ»[1] .
وجدير بالذكر أن هذا العاموس راعى غنم ، وهو يفتخر بعمالته هذه :
« فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال لى الرب : اذهب تنبأ لشعبى إسرائيل » . ونكتفى لأننا لسنا بصدد بحث فى علم الأديان المقارن .

هذه القصص المعجبة التى سمعها «المصطفى» سواء فى أسواق مكة أو التجمعات الموسمية أو فى جلسات القراءة فى لياليها الطويلة أو فى حلقات المدارسة والمراجعة على يدى اليعسوب تركت فى نفسه ووجدانه أخاديد عميقة وأصبح على قناعة بأن «القادمين» و«المنتَظَرين» (بفتح الظاء) و «المأمول مجيئهم» لا بد أن يسمعوا أصواتا يقولون عنها : آتية من الملإ الأعلى . وإذ استمر جميعه بلا كلل ومن غير ملل ودون نَصَبٍ سنينَ عَدَدًا وأعواما طوالا تسربت الفكرة إلى الأعماق وتغلغلت فى الغَوْر، وهو ما سوف يحدث مع الخطوة القادمة . ونعنى بالفكرة الرؤى التى بدأت بأصوات يسمعها ، تمامًا مثلما حدث مع إشعيا وعاموس وغيرهما من بنى إسرائيل ،

(١) هذه الركاكة لا يعرفها الأسلوب المسلم . إنها تذكرنا بركاكة الأساليب فى «أعمال الرسل» و «رسائلهم» و «رؤيا يوحنا اللاهوتى» وأمثال ذلك . ثم أيطيق العقل المسلم أن يستشهد بهذا الكلام الذى يُشْبِه رقية النملة استشهاد المصدِّق له حتى لو كان صاحبه قد ارتد على عقبيه ؟ لا أظن ذلك إلى آخر الدهر !

فيحق للمنتظَر العربى أن يؤكد لمن يتحلقون حوله أنه يسمع أصواتا ويرى أضواءً معها فى بعض الأوقات، إنما لم يَحُلّ زمان البوح بمصدرها أو لأن «أحمدًا»(١) أمينٌ فلم ينسبها لشخص معين أو جهة مخصوصة (ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧) .

* * *

ـ إعلان نجاح التجربة العظيمة وبوقوعها حَقّ لخديجة أن تخاطب أهل مكة بأعلى صوتها : ها هو القادم المأمول الذى طال انتظاركم له وكذا سائر عرب الجزيرة لتفاخروا به اليهود ولتنافروا به النصارى ، إذ لم يعد لأى منهما فضل عليكم . وسوف يرفع بيمينه كتاباً مثل كتبهم وسترَوْنه رائعًا معجبًا . كيف لا وهو من قريش ونشأ فى بادية بنى سعد فغدا أفصحكم وأعربكم وأبلغكم ، ومن ثم فإن كتابه كأنه هو سيأتى مثلا فى الإبانة وقمة فى الطلاقة وذروة فى الإنشاء ؟(٢)

---

(١) الصواب : « أَحْمَدَ » بدون تنوين .

(٢) واضح ماذا يريد المبشِّر المستخفى تحت أستار الظلام أن يقول ، وهو أن القرآن إذا كان بليغا فلأن مؤلفه محمدا كان بليغا ، وهذا كل ما هنالك ، فلا وحى ولا يحزنون ! ثم إن المؤلف الرقيع يتحدث عن خديجة وكأنها إحدى صعلوكات الشيوعية المتمرسة على العمل (وغير العمل !) تحت الأرض !

من الذين جاءت أسفارهم بليغة فصيحة تبعا لذلاقة لسانهم ونصاعة بيانهم النبىُّ يشوع ياهو بن أموص المشهور عند عامة من يقرأون الكتاب المقدس بإشعيا ، فهو عبقرية أدبية ليس هناك من فاقه فى براعة التعبير وتألق الخيال ، وأسلوبه قمة فى الأدب العبرى. وهو فنان بارع فى اختيار الكلمات ، ومن ثم تميز سِفْره بجمله وتعبيراته الوصفية الدقيقة رفيعة المستوى ، وفى عمومه يتسم بالجمال والقوة معًا ويمتلئ بالعبارات البارعة والاستعارات الجميلة(١) . أى أن الكتاب يدور مع صاحبه القادم به فصاحة وركّةً ، تمامًا كما فى المذهب التجريبى ، يدور الحكم مع العلة وجودًا وعدمًا ، فإن وُجِدَت العلة وُجِد الحكم ، وإذا لم تظهر اختفى أو انتفى . وباختصار إذا امتاز القادم بطلاقة القول وحلاوة المنطق جاء كتابه مثله ، أما إذا لم يحظ بتلك الموهبة طُرِح كتابًا فاترًا ضاويًا ذاويا . هذا ما نلمسه فى أسفار العهد القديم بمنتهى الوضوح (ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩) .

* * *

---

(١) هذا كلام لا يمكن ، والله ، صدوره عن مسلم بل لا يُتَصَوَّر خُطُوره (مجرد خُطُور) بباله أبدا . وهو برهان آخر على صحة ما قلتُ من أن مؤلف الكتاب مبشِّر، ومبشر رقيع .

- إن التقاء ملاك الرب جبرئيل بمحمد الذى اعتبرته خديجة ختّم التصديق على التجربة حملت لنا كتب السيرة المحمدية أكثر من ثلاثين رواية له كلٌ واحدة منها بصورة مختلفة وموضع مغاير ووقت مباين ووصف مفارق . أما الكائن العلوى الذى التقاه فمرةً هو ملاك، وأخرى شىء ، وثالثة جبريل ، مع أن اسمه لم يرد فى السور المكية بل المدنية فى هذه الخصوصية . وهذه المسألة برُمّتها تحتاج إلى دراسة معمّقة تحيط بها من كافة أقطارها وسائر ملابستها وتتعمق دخائلها وتتفرس فى ملامحها الخارجية ... إلى آخره نظراً لأهميتها القصوى . بيد أن الكتبة المحدثين والخطباء والوعاظ تبع مؤسسة شؤون التقديس ومن خارجها لا يلوكون إلا حكاية واحدة ، وهى أن جبريل ظهر لـ«المسدّد» فى مغارة حِرَى فى إحدى ليالى شهر رمضان التى أصبحت ليلة القدر وخير[1] من ألف شهر ، وقال له : اقرأ ، ثم غتّه أو غَطّه ثلاث مرات وهو يقظان وفى كامل وعيه . وبعد انصرافه كأنما نُقِشَتْ أو كُتِبَتْ فى قلبه .

حقيقة أن بعض البُحّاث المعاصرين لم يطاوعه ضميره العلمى ولم

(١) الصواب : « وخيّراً ... » .

يفرط فى أمانة الكلمة فرَقَمَ فى مصنفه أن المسألة لا تعدو رؤيا وأنها لم تغادر نطاق الأحلام . وفيما سبق أوسعنا مسألة الأحلام بحثا ودراسة لدى الجميع . إنما الإصرار ما زال مستمرا على أن المقابلة بين القطبين تمت فى الصحوة وفى كامل الوعى . وبعض المتحذلقين من القدامى والمعاصرين عندما يستيقظ ضميره العلمى ويشرع فى عضّه بل نهشه يأتى بالحيلة الخائبة التى نصادفها فى كثير من مصنفات العلوم الإسلامية ، وهى تكرار الحديث الذى يحارون فى تعليله عقلانياً . وبالمثل فإنهم يدّعون أن اللقاء تم فى المنام أولا ثم فى الصحو !!! لماذا ؟ لتمرين « سعد الخلائق» على لقاء جبريل عندما يظهر عيانا بيانا فلا يصيبه الهلع . إذن فما رأيكم وقد حدث الرعب والفزع وارتجاف البوادر فعلا كما أخبرتنا كتب السيرة بل أطبقت عليه ؟ إذن تعليلكم هذا غير مقنع .

والذى ندريه على وجه التحقيق أنه لا يغض من قدر «الأطيب» أن يأتى لقاءه[1] بجبريل أو ملاك الرب أو الشىء ... إلخ فى المنام وأنه مجرد رؤيا لأن إبراهيم أبا الأنبياء رأى مع المنام أنه يذبح ابنه ،

---

(١) الصواب : « لقاؤه » .

ويوسف الجميل المليح الذى استأثر بشطر الحسن وترك لسائر البشر ذكوراً وإناثاً منذ زمانه حتى الآن الشطر الآخر رأى عدة أحلام نَصَّ عليها القرآن المجيد ، بل يمكن أن نصفه بأنه خِرِّيتٌ فى تفسير الرؤى والأحلام ، فضلا عن أن عدداً من أنبياء بنى إسرائيل رأى رؤًى . بل إن من بين هؤلاء من أخذ يصرح بأن كلام الربّ الذى ينقله إلى بنى إسرائيل إنما جاءه وحيا مناميًّا .

إذن لو درس أولئك الكتاب المعاصرون ورجال مؤسسة شؤون التقديس نتفاً فى علم الأديان المقارن أو طرفًا من تاريخ الأديان لفقهوا أن بُدُوّ الملاك جبرائيل لـ « البَهِىّ » وهو نعسان فى مغارة حِرَى أمر لا غبار عليه ولا يهبط بوصة واحدة بمقامه العالى ودرجته الرفيعة (ص ٣٨٩ ـ ٣٩١) .



الفهرســت

رقم الإيداع ٢٠٠١/١١٧٥٠م
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-10-1482-X